فهرس تفصيلى

الباب الأول: ذكريات وراء القضبان.. مذكرات ألفريد فرج

● ألفريد فرج يروى قصة أيامه الأولى فى المعتقل فيختار قصة لا يتنبه إليها إلا مسرحى ممتاز من الطبقة العالية التى يمثلها» يعتز بمسرحية «حلاق بغداد» اعتزازا كبيرا، وهو فى إحدى الفقرات يصف علاقته بها وبنجاحه ● يحدثنا باعتزاز عن اختلاف ردود الفعل تجاه مسرحية «سقوط فرعون» واتجاه معظم النقاد إلى التنديد بالمسرحية، على حين يذكر أربعة فقط من الأعلام دافعوا عن هذه المسرحية، بيد أن كامل الشناوى عبر عن الموقف كله فى عبارة ساخرة ● رأيه الواضح الذى ينتقد فيه ما يسميه «القراءة الرقابية» للأدب، وهو المنهج الذى أوذى هو نفسه بسببه، كما أوذيت به أعمال كثيرة فى عهد الثورة ● يكاد يعطى العذر للنقاد والرقباء الذين «تدرجوا» إلى الانسياق وراء هذا الأسلوب ● يلفت نظرنا إلى بعض المفارقات التى جعلت «سقوط فرعون» تحظى بهذا الحظ النكد، ومن هذا الذى يرويه صاحب المسرحية نكتشف أن أحمد رشدى صالح كان هو الذى أطلق على المسرحية هذا الاسم الذى أعجب به مخرجها حمدى غيث، بدلا من اسمها الأصلى «مأساة إخناتون» ● يعترف بأنه كان فى وسعه أن يغير اسم المسرحية بعدما شاع فى الصحافة البريطانية تسمية عبد الناصر بالفرعون، لكنه رأى مثل هذ التصرف مستحيلا، وكأنما يريد ألفريد فرج أن يقول إنه كان يستحق ما أوذى به هو ومسرحيته ونقادها (!!) كما نكتشف أن هذه المسرحية نفسها كانت صدى مباشرا لإعجاب ألفريد فرج بقصة عادل كامل الشهيرة «ملك من شعاع» ● يتحدث عن أن هذا التوجه فى تناول الأعمال الأدبية لم يكن قاصرا على مصر وحدها، وأنه هو نفسه عانى منه (فى إحدى مسرحياته الأخرى) فى ألمانيا الشرقية، وكأنما يريد ألفريد فرج أن يدين النظم الشمولية فى تعاملها الرقابى مع الأدب والفن من دون أن يقول ذلك صراحة ● تجربته مع السجن وما أحس به فيه من غربة أو اغتراب، وكيف حاول كسر هذه الرتابة والوحشة من خلال استبطان هوايته للمسرح وحبه له ● يتحدث عن شعوره بالغربة فى المعتقل حديثا مختلفا عن أحاديث أقرانه من اليساريين ● يحاول أن ينظر إلى الأمر من زاوية أخرى يتعاطف بها مع محققيه وسجانيه ويراهم مثله قد تحولوا إلى قشة فى مهب الريح، وهو من أجل

هذا يخرج عن السياق ليستشهد بالحوار الذى دار بين أحد زملائه (د. محمد الخفيف) وقائد المعتقل حول إمكانية صدور أحكام على زملائه دون أن يخطروا بها، ومن ثم يعاملون معاملة الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة دون أن يدرون ● يرى أن النظام الناصرى حقق أوضح صورة لما كان الكاتب التشيكى كافكا يتصوره! ● يشعر بالغربة لسبب آخر تكشف عنه السطور التى يردف بها رواية ما حدث معه فى التحقيق ● يمضى فى تأمله للجوانب العبثية فى تجربة فقدانه هو وزملائه الحرية على مدى سنوت ● يروى قصة الصحيفة التى حملتها الريح إلى المعتقل ذات يوم وقد حملت تصريحا ينفى وجود المعتقلات فى مصر ● ينتقل بعد حوار مسرحى إلى القول بأنهم عاشوا خارج الدنيا والتاريخ فى صندوق محكم ● لا نستطيع أن نروى كل ما خبره أو صوره ألفريد فرج فى المعتقلات من فظائع يشيب لها الولدان على حد تعبير البلاغة التقليدية ● يتحدث عن ذهاب المعتقلين فى «الحجلة» إلى معتقل الواحات، وقد تعمد ألفريد فرج أن يسرب فى حديثه رموزا دالة على شعوره الخفى تجاه هذه المحنة، انظر على سبيل المثال إلى قوله «الأسرى المعتقلين» فى وصف نفسه وزملائه، وما يحفل به هذا المصطلح من دلالة فاضحة على شعور السلطات تجاه أبناء الشعب!! ثم انظر إلى هذا التصوير الدقيق لحالة الشعب نفسه الذى لم يتحمل أن يشهد للحظة واحدة صورة من صور هذه المعاملة القاسية التى كانت السلطة فى مصر تعامل بها أبناءها من الذين اتهمتهم بالشيوعية ● يتصاعد بالدراما الإنسانية إلى ذروة من ذراها التى تعبر عن قسوة البشر على البشر حين لا يأتيهم مَنْ يراهم من البشر إلا لغرض آخر يضيف إلى عذابهم عذابا ومرارة، فها هى زوجة تأتى ومعها المأذون لتحصل على حريتها!! (بالطلاق) من زوجها المعتقل ● يحدث نفسه وكأنه يحدثنا أو يحدثنا وكأنه يحدث نفسه ● ربما نظلم ألفريد فرج إذا ما نحن أهملنا حديثه عن المعتقل من خارجه بعد مضى هذه السنوات، وهو الذى يصور المعتقل تصويرا فلسفيا يستند إلى التاريخ ● لأن ألفريد فرج رجل مسرحى الدم والهوى والمنطق فإنه يجد نفسه مدفوعا إلى أن يبحث عن المفارقات المضحكة كى يسخر بها من جلاديه ● يقص علينا قصة واحد من زملائه الذين صمموا على أن يكسروا هيبة رجال المعتقل وأن يتحملوا العناء والتعذيب من أجل النكتة والضحكة!! حتى إنه كسر كتفيه من أجل أن يكسر هيبة الذين عذبوه!! ● لا يخلو أمر الحياة المرة من بعض ما يخفف قسوتها، ومن الطريف أن ألفريد فرج ينتبه فى ذكاء شديد إلى الدور الذى لعبه الراديو الترانزستور فى القضاء على بعض المشاعر القاتلة فى المعتقل، ويكاد التصوير الذى يقدمه ألفريد فرج يجعلنا نشر أن المعتقل فقد قسوته بسبب اختراع الراديو الترانزستور، وأن المعتقلات قبل هذا الاختراع كانت جحيما نفسيا لا يطاق ● إلى جوار الراديو الترانزستور جاء بصيص أمل فى قيام المعتقلين بدورهم فى محو أمية سجانيهم ● ونحن نرى

ألفريد فرج حريصا على الحديث عن الحيوية التى دبت فى المعتقل حين صدر قرار لوزارة الداخلية بألا تحظى عساكر الشرطة بالترقية بالأشرطة إلا بعد اجتياز امتحان القراءة والكتابة، وهكذا وجدت الوظيفة، فمن الذى سيفتح فصول محو الأمية فى هذه المنافى البعيدة إلا المعتقلون أنفسهم، ويدرسون للجند الحارسين النظام القراءة والكتابة ● يتحدث عن لحظة الإفراج عنه حديثا مختلفا لكنه يشع بتقديم الحرية والإنسانية، ومن وجهة نظر فنان حرم من الحرية ومن المعاملة الإنسانية ومع هذا فإنه لايزال يعجب من هذا الذى حدث له ● وهو يعبر عن عجبه بأن يحاور ضابط أمن الدولة فيما يخاطب به من عبارات بروتوكولية تقليدية لا تهدف إلا لتجاوز اللحظة، لكن ألفريد فرج بما جبل عليه من مهارة مسرحية يرى أن اللحظة أثمن من أن يتم تجاوزها على هذا النحو، وانظر إليه وهو يصف نبرة حديث حسن مصيلحى: «قال: برقة حانية لا تتناسب مع ما وقع» ● يحرص فى ذكاء شديد على أن يتعاطف مع ضباط الشرطة الذين قبضوا عليه، وبعد أن يصف كيف اصطحبوه من «دار الهلال» على السلالم إلى بيته يتطرق إلى تفتيش بيته ● يستغل سياق أحداث مسرحيته فى ذكاء شديد ليبدى نقده المرير لسياسة محمد على باشا فى الفتك بالمماليك، ونحن نرى حديثه عن الطريق الذى صعدت فيه به سيارة البوليس إلى المعتقل وتصويره للطريق على أنه نفق مكشوف سهل مهمة محمد على فى الفتك الغادر بالمماليك بطريقة بشعة ● من الحق أن نقول إن وصف ألفريد فرج لهذه المذبحة فى هاتين الصفحتين يفوق كل ما يستطيعه المؤرخون وكتاب التاريخ من تصوير لبشاعة المذبحة ● يبدى رؤيته التاريخية العميقة فى دهاء بجعل المتلقى يعرف أنه لا يقصد محمد على بذاته، ولكنه يقصد كل الذين اتخذوا محمد على مثلا أعلى، لكنه لا يفعل ذلك بالخروج عن النص، ولا الخروج على الهامش، وإنما هو يفعله فى إطار تصويره الذكى للحظة اعتقاله.. وهكذا يصور لحظة دخوله الزنزانة تصويرا دراميا مؤثرا تختلط فيه الدراما بالتاريخ بالنقد بالحديث المزدهى عن الذات وألم الذات ● يروى قصة حمدى غيث مع النظام الناصرى التى نقلناها عن أحمد عباس صالح فى مذكراته بطريقة أخرى أكثر اختصارا ● إذا ما انتقل بنا ألفريد فرج إلى قصة عرض المسرحية وجدنا حديثا ممتعا إلى أبعد حدود الإمتاع عما دار فى اختيار المخرج للفنانين الذين يقومون ببطولة العرض، وعما دار فى الكواليس من أجل التجهيز لهذا العرض، وعما تكرر من بروفات وتجارب إلى أن نصل إلى لحظة التجلى حين عرضت المسرحية لأول مرة فإذا بالتصفيق ينهال، وإذا بعامل البوفيه نفسه ينبه ألفريد فرج إلى أهمية مسرحيته من حيث أنها التعبير الحى عن رغبة طلعت حرب الذى أسس المسرح لهذا الغرض ● وربما كان من الأمانة أن نشير إلى أن ألفريد فرج نفسه عنى بتصوير شخصية رجل البوفية هذا فى كثير من كتاباته، حتى إنه كتب عن حياته فى كتابه الناس فى الحكايات ● يحرص

على أن يقدم التعبير عن نجاحه بصورة إحصائية، وهى صورة توضح مكانة ألفريد فرج بين زملائه فى مسرح الستينيات بطريقة رقمية ● إذا كان لابد لنا من فقرة تصور جوهر السياسة فى المسرحية فهى «خطبة الخليفة المتدفقة بالسخط» ● مقطع لا يناقش الحرية فقط، ولكنه يناقش المسئولية أيضا ● يفخر بما كان هذا المقطع يحدثه فى الجماهير من أثر ● يعبر بكل صدق عما كان يشعر به من التوجس والقلق وقد رأى نصه المسرحى وقد تحول بالفعل إلى ما يشبه منشور سياسى مؤثر أصبح له مرددون مقتنعون به فكرا ومضمونا، وقد بدأوا ينفعلون به على طريقة لا تبعد به عن أن يعود إلى المعتقل ● على الرغم من أننا قد نتصور أن ألفريد فرج نجح فى أن يمرر مسرحيته من المناخ الفكرى المتربص، فإن طبيعة الأشياء فى المجتمع الشمولى تعود لتفرض نفسها ● ما لقيته مسرحيته على يد رقابة التليفزيون ● على هذا النحو وصل ألفريد فرج إلى ذروة النجاح، وعلى هذا النحو عبر لنا عما وصل إليه من ذروة النجاح، وعلى هذا النحو أصبحنا نؤمن عن يقين واقتناع بأنه وصل بالفعل إلى ذروة النجاح ● يتحدث عن أبرز النجاحات التى حققتها تجربته فى كتابة مسرحية «حلاق بغداد» ● نأتى إلى القضايا الفنية والأدبية التى قدم ألفريد فرج رأيه فيها متظاهرا (عن صدق) بأن مسرحية «حلاق بغداد» كانت السبب فى صياغة موقفه منها بهذا الوضوح، وربما أراد أن يقنعنا (دون تصريح واضح) أن فترة الاعتقال هى التى أتاحت له هذا التأمل الذى ساعده على أن يصوغ رأيه الفنى على هذا النحو الذكى ● يتحدث عن مكانة مسرحية «حلاق بغداد» فى التيار المنادى باستلهام التراث مبرزا ما يعتقد أنه كان بمثابة جانب التميز فى استلهامه هو نفسه للتراث ● يقارن بين مسرحيتيه الأولى والثانية، مركزا على إيمانه بالمسرح الشعبى ● فى مقابل هذا النجاح الجماهيرى الذى صادفته مسرحية «حلاق بغداد» فإن ألفريد فرج صادف هو وأقرانه غربة قاسية صعبة حين كانوا يستمعون على مقهى الفيشاوى إلى كثير من الأحكام الصادمة لهم تأتى على ألسنة مثقفين يزعمون أن عصر المسرح قد انتهى، وأن المسرح قد مات، ومن الإنصاف لألفريد فرج وأقرانه أن ننقل عنه ما يصور شعورهم بالغربة من مثل هذه الأحكام المتسرعة التى كان يمكن لها أن تؤثر فى عزيمتهم ● ألفريد فرج لا يبخل علينا بما يصور إحساسه هو ورجال المسرح من الغربة فى وسط جماعات المثقفين التى تدعى الفهم بينما هى غير قادرة على الحكم السليم، وهو يروى بطريقة ذكية وطريفة حوارات دارت على مقهى الفيشاوى ● إذا كان لابد لنا من شخصية نبرز ثناء ألفريد فرج عليها فى هذه المسرحية فإنها شخصية الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية الوفدى الشهير، الذى كان مغرما بالفن والثقافة، وقد حضر مسرحية «حلاق بغداد» أكثر من مرة، وفى إحدى هذه المرات دار حوار بديع

بينه وبين ألفريد فرج الذى حرص على أن يضمنه فى ذكرياته ● نختم حكاية المسرحية بالحديث عما لقيته بعد هذا من الذيوع والانتشار والتكريم.

***

الباب الثانى: مجرد ذكريات: مذكرات الدكتور رفعت السعيد - الجزء الأول

● التعريف بصاحب المذكرات، قصة التجربة الحاسمة التى عاشها في مطلع ١٩٥٩ عند اعتقال الشيوعيين حين لم يكن قد قضى فى الحرية إلا أياما معدودة ● صاحب المذكرات يضحى بمشاعر أسرته جميعا من أجل ما يعتقد، وهو الذى لم يخرج من السجن إلا أياما قليلة فى نهاية ١٩٥٨، كان فى وسعه أن ينهى تجربة الألم الذى سببه لوالده ولوالدته ولأخوته، لكنه، كان قد قرر من تلقاء نفسه أنه لا يليق به أن يترك الكفاح ولا أن يترك فرصة الهرب ولا حتى فرصة السجن من جديد كيما يدافع أمام نفسه عما تعتقده نفسه ● تتعاقب الأحداث عليه وهو لا يدرى ماذا يفعل، وأى قرار يختار ● يلتقى بكمال عبد الحليم فإذا به لا يرغب فى أن يقيده بقرار معين يصبح ملزما له ● يقرر بكل إيمان أن عليه أن يسرع بأن يترك هذه الحياة الطبيعية إلى حياة الكفاح مهما كلفه الأمر ● يصور الأمر فعلا إيجابيا تمثل فى التباطؤ عن أن يصل إلى بيته فى الموعد الذى حدده البوليس، يصور دافعه إنسانيا قبل أن يكون تنظيميا ● يجيد تصوير شعوره بالراحة النفسية، حين قرر أن ينهى إلى والدته عن طريق الكتابة أنه عائد إلى عذاب الكفاح!! وهى التى لم تتمكن بعد من الفرحة بعودته من السجن الأول الذى غاب فيه خمس سنوات ● يصور أجواء الحرية خارج إطار السجن والهرب على أنها «الرداء الخارج عنه» ويعبر عن سعادته بخلع هذا الرداء، ويعترف، بمدى قسوته على والدته وأهله ● يقدم صياغة جميلة فى فقرات أدبية عالية القيمة يصف فيها شعوره حين خرج من السجن بعد أول حكم عليه قضاه فيه كاملا، وهو السنوات الخمس، ومن العجيب أنه صادف الحقيقة المؤلمة وهى أن سجنه لا ينتهى إلا مع فجر عصر جديد من الاعتقالات الواسعة المكثفة لليسار المصرى ● يقدم القصة بكل رتوشها وتفصيلاتها مركزا على الجوانب الإنسانية الفارقة فى علاقته بأسرته الصغيرة: والده ووالدته واخواته ● كيف بدأ بالصدفة يستمع إلى خطاب عبد الناصر الشهير الذى كان بمثابة إعلان حرب على الشيوعيين ● يتحدث عن إحساسه بالغربة الذى يتزايد كلما اقترب من أهله الذين كانوا بالطبع بعيدين عن دنياه فى العمل السرى، وفى الشيوعية أيضا ● يجيد التعبير عن لحظات التأمل وما قاده إليه من تعميق الصراع بين الالتزام بما يعتقده وما يجلبه هذا الالتزام من عذاب للأهل ● فى وسط هذا الحديث لا يمانع رفعت السعيد فى وصف صوت عبد الناصر بالحقود ● يعترف أنه كان من الممكن له فى

بداية عهد الثورة أن ينجو من الحكم بخمس سنوات من الأشغال الشاقة، لكنه أضاع هذه الفرصة أو ترك هذه الفرصة تضيع حين أطاع تعليمات المسئول عنه فى التنظيم الشيوعى الذى كان ينتمى إليه ● يقدم القصة على نحو سريع وخاطف، إلا أن دلالاتها كثيرة ومتعددة، وهى دلالات واضحة ومعبرة وليست فى حاجة إلى تعليق!! وقد أجاد صاحب المذكرات تقديمها بما يوحى بما فى دلالاتها من معان ظاهرة، ومعان عميقة أيضا ● أهم هذه الدلالات هو التصوير الجيد الذى يقدمه رفعت السعيد لموقف حركة «حدتو» من ثورة يوليو وكيف كانت معاناتها من عقدة تأييدها المبكر للثورة تدفعها إلى الوقوع فى خطأ الهجوم على الثورة، وما كان هذا يستتبعه من إتاحة الفرصة للثورة نفسها لتتهم «حدتو» بما من شأنه أن يضع أفرادها تحت طائلة العقاب!! وأن يدفع بهم إلى العقاب بالفعل ● صاحب المذكرات ضحية لهذا الموقف المركب على نحو ما نلمس فيما يرويه ● تأتى لحظة الحل أو بالأحرى لحظة التعقيد وخلق المشاكل، وها هو المسئول عنه فى العمل السرى لا يرضى له حرية مقابل المال، بينما غيره عاجز عن المال الواهب للحرية ● يعترف بأنه اتخذ قراره الخاطئ برفض الوسيلة المتاحة التى كانت كفيلة بخروجه من السجن وإراحته من الأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات خوفا من أن يتهم بالتخاذل ● يعترف بالخطأ، ربما ليبرر مواقف تالية ، يتناول قصة الإفراج عن مجموعة من زملائه السودانيين على يد المحكمة ● المذكرات كلها اغتراب فى اغتراب، وكأنما حياة صاحبها لا تولد إلا الاغتراب ● لكن رفعت السعيد فى ذكاء شديد يبدأ ذكرياته على نحو يصور لنا أنه كان فيما اختاره لنفسه من حياة متفقا مع نفسه، ومع تكوينه، ومع أصوله، ومع بيته، ومع بيئته، بل إنه فى بداية مذكراته يحرص على الفخر بأنه من نسل رجل مات شهيدا وفديا وهو جده لوالدته ● يصور ذكرى جده على نحو ما مضت: قبر ضاع، ثم نصب تذكارى فى عهد الوفد ١٩٣٦، ثم يد همجية فى ١٩٤٦ تدمر النصب ● ثم ها هو رفعت السعيد ينتقم بكفاحه المتصل من كل هذا الظلم على قدر ما يتاح له ● يمضى فى هذا التصوير الجيد لروح البيت التى دفعته إلى هذا الطريق الشاق حين يتحدث باعتزاز ذكى عن إصرار جدته الوطنية الواعية الذكية على زيارته فى المعتقل وتشجيعه على موقفه الذى دفعه إلى هذا الاعتقال ● يخصص فصلا مثيرا بعنوان «الحب غير القضبان» يبعث على الأمل والسعادة والفرح لصاحب المذكرات حين يتحدث فى هذا الفصل بنشوة وبخجل شرقى شديد عن بداية حبه لزوجته الفاضلة التى شاركته الكفاح والسجن ● نراه متمتعا ببراعة فنية مقتدرة تجعله لا يقدم لنا الحديث فى صورة مباشرة، لكنه يقدمه من خلال دهاليز حديث عن معاناة السجن، وكأن هذا الحب زهرة نبتت رغم الأشواك ● وفى الأشواك، وعلى الأشواك ، نراه وقد استعذب مبكرا سلطاته المعنوية (!!) فى الشيوعية، فقد كان فى وسعه، حسب تصور البسطاء، أن يعطى شهادة

تعفى حائزها من دخول الجيش، وذلك طبقا لقاعدة استنتها الثورة عقب قيامها مباشرة ● يحاول بمهارة شديدة أن يلخص عقيدة البسطاء تجاه الحبس والسجن وفقدان الحرية نتيجة للإيمان بمعتقد سياسى ما ● يتحدث عن غربته المبكرة بين زملائه فى رحلة السجن المبكرة وهو الذى قدر له أن يقضى بعض أيامه معهم بينما كان لايزال صبيا يلبس الشورت على عادة أهل ذلك الزمان ● يتحدث عن رؤيته لهؤلاء الزملاء بنضج المفكر الذى خاض التجربة مرة بعد أخرى وأصبح قادرا على تقييم الخطأ والأخطاء فى مراحل النضال اليسارى ● يعود إلى ما تسعفه به ذاكرته عن صورته وصورة هؤلاء البرجوازيين الصغار فى أولى تجارب اعتقاله، وغربته أيضا، وهو الذى يعبر عن نفسه بأنه كان أقرب ما يكون إلى قطة بلا صاحب ● تمضى معه إلى زاوية أخرى ينظر من خلالها إلى تجربته الأليمة، وهى تجربة اعتقاله الأولى، وهو يعيد النظر فيما كان يراه من أحداث عابرة اتضح له فيما بعد ما كانت تدل عليه من حقائق التاريخ التى غيبت عنه، وليس لنا أن نعجب من حديث رفعت السعيد عن أن الانتماءات الصهيونية كانت تحظى بالتدليل (!!) على حين أن الانتماءات اليهودية كانت تحظى بالتعذيب مادامت قد ارتبطت بالشيوعية !! ● وهو يذكر بالاسم الصريح المليونير أوفاديا زعيم الصهيونية فى مصر ● يتحدث بحب وتقدير عن الحيلة الذكية التى لجأ إليها والده لكى يخرجه من السجن كى يؤدى امتحانه ● وهو فى سبيله لقص هذه القصة علينا لا يمانع أن يعثر الرذاذ فى وجه حافظ عفيفى رئيس الديوان الملكى وتاريخه كله ● يتحدث عن معاناة الشيوعيين فى سجون عبد الناصر، وفى ظل حكم عبد الناصر، ولا يمكن القول لنا ولا لغيرنا بأن هذا الموضوع يمثل تجنيا على هذه الفترة، ولا على وقائعها، لكنه على النقيض من ذلك يقدم أحكام مفكر ذكى، وسياسى ناضج على أحداث قدر له أن يصطلى بنارها ● لا يبخل علينا فى حديثه عن فترة هروبه بتمرير كثير من أحكامه على فترة بداية الستينيات من حكم الرئيس جمال عبد الناصر، وما حفلت به من عداء لليسار واليساريين، وهو عداء مركب انتهى إلى ما صوره رفعت السعيد على أنه انحطاط سياسى وخلقى ● فى بداية فصل خاص بعنوان «حوارات مستبدة» يلخص رؤيته لمنظومة التعذيب فى عهد عبد الناصر ● صاحب المذكرات لا يفرط فى الحديث عن التعذيب البدنى، لكنه فى ذكاء شديد يكتفى بعبارات صادقة تصور بشاعة هذا التعذيب ● يتحدث عما يسميه الحوارات الناصرية، رامزا للتعذيب الذى لقيه هو وغيره فى سجون الثورة ● حديثه عن الإصابة القاتلة التى خرج بها هو نفسه من إحدى دورات هذا التعذيب ● نراه فى هذا الحديث يحمل نفسه بعض المسئولية عن الإصابة التى لحقت به على هذا النحو الفظيع، ذلك أنه جلب لنفسه هذه القسوة حين سرى عن نفسه بالسخرية من رقة أحد الضباط المكلفين بالتعذيب ● ومع أن للقصة جانبا آخر من انتقامه اللاحق من هذا الضابط، فقد رمت

الأقدار به بعد سنوات ليكون فى متناول يد رفعت السعيد، ولم يجد رفعت السعيد مانعا فى أن يمارس لعبة الانتقام لبعض الوقت، لكنه يوحى لنا أنه بما جبل عليه من إنسانية سرعان ما توقف عن هذه اللعبة ● يروي قصة حياته فى المنصورة ● عانى من غربة أخرى هى غربته مع الجماهير التى تغيرت سلوكياتها تحت حكم الثورة، وهى غربة قاسية على النفس وعلى العقل أيضا، لأن ما حدث فى نظر الكثيرين كان قاسيا ● رفعت السعيد تفوق إلى أبعد الحدود فى تقديم صورة المجتمع المصرى فى بداية عام ١٩٥٩ حيث بدأ فترة هروبه واختفائه بعد أن أتم ما حكم به عليه من قبل، وهو السجن لمدة ٥ سنوات ● ثم هو لا يكاد يخرج حتى يفاجأ باعتقالات رأس السنة الشهيرة (١٩٥٨ ـ ١٩٥٩) ● وهو بعد كل هذه السنوات التى انقضت يحاول أن يحلل بعض ما أحس به تجاه هذا المجتمع ● نتأمل جهود زعيم صغير قدر له أن يتحمل المسئوليات والتبعات فى فترة باكرة من حياته ● نشاركه شعوره بالخوف من المسئولية وحجمها، ذلك أنه حين ألقيت على عاتق رفعت السعيد مسئولية رفاقه فى الجامعة فقد كان لابد له من أن يعبر عن دهشته لوضعه حيث أصبح مسئولا عن قيادة رفاق لم يعرفهم من قبل، وليست له بهم علاقة وثيقة كمثل علاقته برفاق المنصورة ● ومن العجيب أن هؤلاء كانوا يعيشون حالة من الحذر الغريب، وكان سببها أنهم هتفوا بحياة الزعيم جمال عبد الناصر الذى تقبل ذلك الهتاف بترفع مرير !! ● يحدد موقفه من الرئيس جمال عبد الناصر على نحو واضح وغير ملتبس، وهو موقف يتخطى النقد، كما يتخطى العداوة !! لكنه يقع أسير الاندهاش من اضطرار عبد الناصر إلى هذه المسالك التى دفع الشعب ثمنها ● يقدم هذا الموقف الحاسم فى عداواته من خلال قصة على حنيطر، وبكل ما توحى به من الوضع الجديد، وسواء أصحت تفصيلات هذه القصة كلها أم لم تصح، وسواء أكانت حقيقية أم نصف حقيقية، أم لا حقيقية على الإطلاق، فإنها، بلاشك، تصور على نحو دقيق عقيدة رفعت السعيد تجاه عبد الناصر فى ذلك الوقت ● لا يقف حديثه عن اغترابه عند حد، بل إن هذا الحديث يسيطر على كل رواياته، وعلى كل رؤاه، حتى إنه حين يذهب إلى سجن ذهب إليه من قبل، فإنه يحس بالغربة لأن السجن قد تغير ● يتحدث عن سجن الواحات الذى قدر له أن يذهب إليه مرة أخرى فإذا به يجده شيئا آخر غير السجن السابق الذى عاش فيه، وإذا هو حتى فى السجن يحس بغربة من نوع عجيب يسمح للرومانسية أن تقارن بين سجن وسجن، وبين السجن ونفسه فى وقت غير الوقت ● يتحدث عما أحسه أو اكتشفه من خطورة تأثير كل هذه الدعايات على أيديولوجية «حدتو» ● ربما نعجب لهذه الغربة التى يصورها رفعت السعيد أو يشير إليها فى ثنايا حديثه عن حياته فيما بعد الإفراج عنه، لكننا سرعان ما نجد الإجابة على عجبنا فيما يرويه عن المناخ الذى عاش فيه فى مدينته المنصورة حين عاد إليها وحاول أن يعيش الحياة التى عاشها من قبل

فى بيته ومع أسرته ● لا تتوقف غربته عند مشاعره الحائرة فى الإجابة على أسئلة الناس عن حياته هو، وإنما هى تتعدى هذا إلى موقفه هو نفسه من تأمله لحياة الناس من حوله، وقد أصبحت هذه الحياة تمضى على غير ما هو منطقى أو ما يسميه رفعت السعيد «النفاق الأيديولوجى المفروض عليهم» ● لا يبخل علينا بما اكتشفته بصيرته من حقيقة موقف ثورة ٢٣ يوليو من التنظيمات الشيوعية، وهو الموقف الذى لخصته عبارات رجل المخابرات عبد الفتاح أبو الفضل التى ذيل بها قرار منع نشر قرار حل التنظيم الشيوعى ● يعبر عن هذا بالسخرية من أن الثورة استكثرت على الشيوعيين أن تنشر لهم قرار حل تنظيمهم ● يوحى إلينا بعناد السياسى القديم، والأيديولوجى المتمرس أنه فى قرارة نفسه لم يشأ أن يستسلم لهذا القرار ● يعبر عن صدمته فى صدور مثل هذا القرار على نحو ما يوحى بجسامة الخسارة التى تمثلت فى هذا الموقف ● يصل فى تصوير تطور علاقة اليسار بعبد الناصر إلى رواية ما حدث فى مرحلة تأسيس التنظيم الطليعى، ومفاوضته اليساريين القدامى على الانضمام إليه ● يروى ما يرويه من شرفة التاريخ فيبدو وقد ارتدى مسوح الحكمة التى لم يقدر لليسار نفسه أن يرتديها فى ذلك الوقت، حقيقة أن نظام عبد الناصر قد وظف عملية تكوين أو تشكيل التنظيم الطليعى نفسها لتكون مصيدة جديدة وحقيقية للشيوعيين، أو بمعنى علمى أدق ليكون مرشحا أو فلترا يضمن فرز الشيوعيين وقدرتهم على الاندماج فى كيان بيروقراطى شاب وفتى من طراز التنظيم الطليعى ● يكاد يصرح بهذه الفكرة، لكنه يفعل ذلك على استحياء، وربما كان هو استحياء الإنسان المفكر الذى وجد نفسه يقع فى المصيدة على الرغم مما كان يتمتع به من بصيرة قادرة على أن تجنبه هذا الوقوع ● نأتى إلى أروع فقرة فى هذه المذكرات، بل فى كل المذكرات التى تحدثت عن معاناة اليسار المصرى، وهى فقرة تنبع عن جوهر الإيمان الحقيقى المجرد من رطانة النظريات، والمدرك لحقائق الأمور على وجهها الصحيح، لذة الوصول إلى الحقيقة على نحو ما وصل إليها رفعت السعيد نفسه حين يروى تفصيلات طريفة وذكية عن اجتماع محلى هو اجتماع المنطقة الأولى فى الدقهلية الذى رأسه هو نفسه، وإذا بالحكمة تأتى كعادتها على لسان فلاح ذكى بينما المنظرون من أمثال صاحب المذكرات غائبون عن الحكمة!! ● وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فإن رفعت السعيد الذى قضى سنوات السجن فى تأمل يكشف لنا عما قدر له أن يكونه من فكرة كاملة عن الفساد الذى تخلق على يد الثورة وقراراتها ● يتحدث عما أدركه هو نفسه فى مرحلة مبكرة من الملامح الصارخة المنبثة عن الفساد الإدارى فى ثورة يوليو ١٩٥٢ ● يصور بالقصة التى يرويها جبلا ضخما وكبيرا من الفساد الذى نشأ وترعرع فى عهد الثورة بفضل تدخل الدولة غير المبرر فيما لا تملكه، وفيما لا تجيده، وهو ما حدث على سبيل المثال فى أراضى الإصلاح الزراعى التى تأممت وأصبحت فور تأميمها مرتعا خصبا للفساد ●

وربما أن الجديد فيما يرويه رفعت السعيد هو هذا الفساد الفورى!! إذ أن الصورة الذهنية فى وجداننا لا تكاد تتصور سرعة نشوء الفساد وازدهاره على هذا النحو الذى حدث منذ بداية عهد الثورة ● لا يجد حرجا فى أن يذكر قصة الفساد الذى شهده بالأسماء الصريحة!! ● كان من الذكاء بحيث لخص بهذا الموقف طبيعة الصراع الكامن بين طبقة رجال الأعمال الشرفاء الحقيقيين من طراز والده من ناحية، وبين نظام عبد الناصر من ناحية أخرى ● يقدم معلومات فى غاية الأهمية عن حقيقة موقف طلاب الجامعة فى العام الأول للثورة، الذى كان بمثابة عام حاسم فى تاريخ الحركة الوطنية والطلابية على حد سواء● أن يصور توزع توجهات زملائه ما بين الشيوعيين والإخوان المسلمين، وهو ينجح فى أن يصور الشيوعيين قادرين على الوجود إلى جوار الإخوان، حتى مع دعم الثورة الواضح للإخوان وتحالفها معهم ● يستشهد على صواب ما يرويه بما يذكر أنه حوار دار بين جمال عبد الناصر وخالد محيى الدين ، يمضى فى تصويره لأحداث ذلك العام وما حفل به من نشاط الشيوعيين ● يثأر لنفسه وللشيوعيين وللطلاب من الدكتور سليمان الطماوى (وهو يذكره بالاسم الصريح) الذى كان يلمح للثورة ورجالها بضرورة اتخاذ قرار قاس ضد هؤلاء الطلبة مانع عنده من أن يصل إلى الإعدام ● يحاول أن يقنعنا أن الشيوعية كانت تتمتع بأرضية كبيرة فى بداية عهد الثورة، وكأنه يحاول أن يقنعنا فى الوقت ذاته بمدى نجاح الثورة فى محاربة الشيوعية حربا لا هوادة فيها، انتهت إلى ما انتهت إليه الحركة الشيوعية المصرية ● وفى هذا الصدد فإن رفعت السعيد لا يفوت فرصة رواية بعض مظاهر ترحيب الجماهير الجامعية بالشيوعية، كما يروى بعض الاستجابات العميقة التى شكلت وجدان مجموعة من الشبان الذين يفخر بهم رفعت السعيد عن جدارة وحب ● يشير بالاسم إلى الشاعر العظيم نجيب سرور الذى تحول على يديه من الفاشية إلى الشيوعية ، يروى قصة تورط مجموعة من تلاميذه أو زملائه التالين فى محاولة لاغتيال الرئيس عبد الناصر ● يتحدث عن الغربة الشديدة التى عانتها حركة «حدتو» مع الرئيس عبد الناصر ونظامه، مقدما ما يعتقده سببا فى هذا الصدام المتأزم بين أصدقاء سابقين ● نأتى إلى ما يجود علينا رفعت السعيد به من فصول ممتعة من قصته مع البطل العظيم يوسف صديق ● يبدأ برواية تفصيلات أول لقاء بينهما، وقد تم اللقاء بناء على رغبة يوسف صديق فى أخذ رأى قائد مسئول فى «حدتو» فى عرض قدمه له الرئيس عبد الناصر بأن يكون سفيرا لمصر فى الهند لتنسيق استفادة مصر من تجربة الهند ● يلتقى بيوسف صديق بناء على طلبه ويستمع إلى حديث القائد الثورى العظيم ويصارحه بأنه لا يستطيع أن يعطيه رأيا فى مسألة معقدة كهذه، لكنه يقترح عليه اقتراحا تصوره حلا لكنه فى واقع الأمر كان السبب فى نكبة جديدة ليوسف صديق وزوجته وحركة «حدتو» نفسها ● لا تفوته الفرصة ليتحدث عن إعجابه العميق

بهذا الالتزام الجاد الذى كان يوسف صديق نموذجا حيا وصادقا له • لا تخلو المذكرات من كثير من الطرائف التى تصور بروح ذكية بعض مظاهر الحياة العامة التى قدر له أن يعيشها بعد خروجه من السجن • يجيد وصف وظيفته فى «أخبار اليوم» محاولا وضع هذه الوظيفة فى سياق العمل اليومى فى الأخبار • وملخصا فى الوقت ذاته طبيعة الصراع المهنى والسياسى الذى يتطلبه وجود وظيفة كوظيفته، ومستعينا فى النهاية بتعبير دقيق لأستاذنا محمد فهمى عبد اللطيف وصفه فيه بأنه ترجمان الثورة رفعت السعيد يصف مهمته بأنها سمجة ورديئة • يجيد تصوير معاناته هو وخالد محيى الدين من وشايات ومؤامرات محمد حسنين هيكل • يعبر عن هذه المؤامرات والوشايات بأسلوب مقتدر ينجو فيه من جلد الذات، ومن تضخيمها فى الوقت نفسه، لكنه يظهر بوضوح أنه انتصر فى هذه المعارك بفضل استناده إلى العقل وإلى حكمة التجربة التى أتيحت له بفضل العمل السرى المنظم وما أتيح له من الوصول إلى أعماق النفس البشرية من خلال هذا العمل، ومن خلال السجن • نراه وهو شاب صغير فى مقتبل حياته الوظيفية قادرا على أن ينتصر على هيكل بكل نفوذه وهيلمانه ومؤامراته، وهو ينتصر لا لشىء إلا لأنه صاحب قضية وصاحب موقف وصاحب قدرة على أن يتحكم فى أعصابه وانفعالاته، على حين كان الخصم الآخر، وهو هيكل، يستند إلى قوته ونفوذه وطباعه السيئة التى لا تتورع عن البعد عن الحقيقة وعن الصدق، ولا تتورع عن اللجوء إلى الخداع، واختلاق المؤامرات، والافتراء على الآخرين من أجل الوصول إلى هدف وقتى • ينسف بهدوء شديد وبدون ضجة كل مزاعم هيكل حول كفايته الصحفية، وكفاية الأهرام تحت قيادته، كما ينسف أيضا بهدوء أشد مزاعم هيكل عن حرصه على توفير الفرصة المتكافئة لزملائه فى الصحف الأخرى، وهو يجيد تقديم الصورة من خلال تقديم مشاعر زملائه لا مشاعره هو وحده، وإن كان هو نفسه قد اختزن التجربة ودلالتها وأجاد التصرف من خلالها فى أوقات لاحقة • يتحدث باقتضاب شديد عن محاولات هيكل اختراق مجموعة خالد محيى الدين وتفجيرها من داخلها، وهو ما يدلنا على مدى ما كان هيكل يشعر به من ضعف فى الثقة فى قدراته وقدرات فريقه إلى حد أنه بدأ يخشى صعود وسيطرة فريق كان يسهل وصفه بأنه مبتدئ وغريب إلى حد كبير عن المجتمع الصحفى • نأتى إلى ما تصفه أدبيات السياسة والتاريخ بأنها واقعة كاشفة للمؤامرة ولأطرافها ولأصابع الذين شاركوا فيها، وهو ما يدلنا على أن التلاعب بالأرقام كان سمة فى العهد الناصرى وما تلاه، وذلك فى ظل انعدام قدرة كبار رجال الدولة على تمحيص ما يقدم لهم على حين أنه صنع خصيصا وصيغ بصياغة كفيلة بدفع الأمور والقرارات الرئاسية إلى اتجاه بذاته • نصل معه إلى الواقعة التى أعقبها استيلاء هيكل على المؤسسة، وكيف وقع خالد محيى الدين بحسن نية فى الكمين الذى حفره له هيكل كى يدفعه

دفعا إلى الاستقالة ردا لكرامته، ونعجب، وما كان لنا أن نعجب، من أن يكون عبد الناصر نفسه منتظرا على أحر من الجمر لهذه الاستقالة، وكأنما كان مشاركا بقصد فيما فعله هيكل، ذلك أن الباحث المنصف أو القارئ الواعى لما يقدمه رفعت السعيد من رواية للقصة لا يمكن له أن يقتنع أن عبد الناصر كان من السذاجة بحيث يترك لهيكل تدبير كل هذه المؤامرات من دون أن يكون عبد الناصر نفسه هو بطلها الأول، أما هيكل، فى فهم أى متعقل يقرأ الرواية، فقد كان مجرد مخلب قط، أو ممثل مساعد ● لعل هذه الرواية ترينا كيف أن الديمقراطية الحقة ومناقشة فريق أخبار اليوم (شيوعيين وغير شيوعيين) لخالد محيى الدين فى قراره الاحتجاجى على هذه الواقعة كان كفيلا بأن يحرك الأمور فى اتجاه بعيد عن استقالة خالد محيى الدين الاحتجاجية ● ومع هذا فنحن نعرف من نظام عبد الناصر أن خالد كان سيترك منصبه سواء أحتج أم لم يحتج، وربما كانت استقالته الاحتجاجية أكرم له بكثير ● يروى كيف كان عبد الناصر جالسا فى بيته أو مكتبه متعجلا استقالة خالد ● يصور بدقة ما يصفه بأنه بشاعة دخول هيكل إلى أخبار اليوم دخول المتآمر الذى حقق هدف تآمره أخيرا ● هيكل يبدأ فى معاملة رفعت السعيد على نحو لا يختلف كثيرا عن سلوك أفراد الطبقة الدنيا من المديرين على أكثر تقدير ● عرف رفعت السعيد بعض حدود التنكيل الذى سيمارسه محمد حسنين هيكل بعد أقل من أسبوع، لكنه كان يواجه خطوة أخرى فى سبيل التنكيل به على يد ذلك الذى يصور نفسه إلها يعفو ولا يشغل باله بالصغائر، بينما معظم تصرفاته لا تخرج عن دائرة الصغائر ● نصل معه إلى مرحلة لاحقة من مؤامرات هيكل الخبيثة وقد وصلت إلى أقصاها حين لم يعد فى إمكان الصحفى الأوحد أن يترك شابا صغير السن كرفعت السعيد فى موضعه المتواضع من مؤسسة أخبار اليوم ● وهو يفعل هذا بأسوأ صيغة يمكن أن تنتهى بها علاقة إنسان بمحل عمله حيث يطلب منه عدم الحضور مرة ثانية!! ● يصور صورة جميلة تظهر معدن خالد محيى الدين، وهو المعدن الذى جعل رفعت السعيد (ضمن أسباب قليلة أو كثيرة) يرتبط بهذا الرجل طيلة عمره ● محمد حسنين هيكل مع كل هذا لا يكف عن محاولاته للتضييق على اليسار، وإنما يبدأ فى اللجوء إلى الوقيعة بين أكثر الناس إخلاصا بعضهم لبعض ويدبر مؤامرة يحاول أن ينهى بها علاقة رفعت السعيد نفسه بخالد محيى الدين بعدما فشل فى الاستحواذ على رفعت السعيد ● نأتى إلى حيلة جديدة من حيل هيكل فى إفساد الجو أمام قيادات اليسار، وتضييق الخناق عليهم، وخلق المصاعب أمامهم، وهو يفعل كل هذا بدأب شديد، ثم يحاول أن ينكره من خلال مسوح يرتديها تهيئ له أن يصور نفسه ملاكا أو على أقل تقدير بشرا مثاليا يعود إلى الحق عندما يدركه ● يتحدث رفعت السعيد أيضا عن دهاء على أمين ● يشخص مشكلة الأخبار تحت قيادة خالد محيى الدين فيصوغ تشخصيه فى عبارة موجزة ودقيقة إلى أبعد حد، أن فريق خالد محيى الدين لم يكن يدرك حقيقة أن وجودهم فى الأخبار لا يمثل دائرة مستقلة عن

مصر (المتوحدة) التى كانت كلها فى قبضة قوية هى قبضة الرئيس جمال عبد الناصر، الذى كان قادرا على الإلمام بكثير من التفصيلات والصراعات، وكان فى الوقت ذاته حريصا على أن يفرض رأيه وتوجهه فى هذه التفصيلات والصراعات • هذا التشخيص الدقيق الذى يقدمه رفعت السعيد ينطبق على حالات كثيرة مثيلة كان أصحاب البطولة فيها يعجبون من تناقض قرارات الرئيس عبد الناصر مع قرارات أخرى له، أو تناقضها مع توجهاته الواضحة، وما كان لهؤلاء أن يعجبوا لو أنهم فهموا ما فهمه رفعت السعيد، أو لو أنه قد أتيح لهم فى مرحلة مبكرة أن يقرأوا مثل هذا الذى كتبه رفعت السعيد • فى وسط كل هذا الحديث عن العذاب والغربة والألم والكفاح والعمل السرى، لايبخل علينا المؤرخ فى شخصية رفعت السعيد وقلمه بكثير من القصص التى تصور مفارقات الصراع الاجتماعى والسياسى فى عهد الثورة، ولعل أبلغ قصة تصور هذه المفارقات هى قصة البرنس محمود ناموق الذى قدر لرفعت السعيد أن يعرفه فى مستشفى السجن، وأن يستمتع بصحبته، وأن يفيد منه • مع أن رفعت السعيد يقدم القصة بما يضمن لها كل عناصر التشويق، فإن مضمون القصة نفسه لا يخلو من كثير من العظة والاعتبار • يتحدث عن دور النبيل عباس حليم فى تسهيل هروب زملائه المعتقلين • يقدم قصة واحد من المنشقين المهمين فى تاريخ الكنيسة المصرية الحديث، وهو إبراهيم هلال، الأصولى المسيحى الذى ثار على الأنبا يوساب فى واقعة معروفة فى تاريخ الكنيسة المصرية فى العصر الحديث • لا تفارق رفعت السعيد بالطبع هواية التأريخ من وجهة نظر ماركسية تعلى من شأن المنتمين والمنظمين، وتحط بكل ما أوتيت من قدرة من شأن «الآخرين»، ولعل فى حديثه عن الدكتور راشد البراوى، وحديثه الآخر عن الضابط مصطفى كمال صدقى ما يصور هذه الخصلة حين يتاح لها أن تسيطر على قلم قادر على تقديمها على نحو يتسم بالدهاء • لا تتوقف المفارقات التى يجيد رفعت السعيد التقاطها عند حد، ومن هذه المفارقات رواية طريفة، بل هى فى غاية الطرافة عن لواء فى مصلحة السجون تعجب من أن يكون هناك شيوعى لا يفهم لدرجة أن يتوقع أن يكون هناك قانون وحقوق إنسان فى مصر بعد كل ما جرى له ولأمثاله من الشيوعيين من تعذيب وتنكيل • حديثه عن المحكمة العسكرية التى قدر لها أن تحاكم الشيوعيين!!.

***

الباب الثالث: الجزء الثانى من مذكرات الدكتور رفعت السعيد

• رفعت السعيد يحكى تجاربه فى ميدان مختلف تماما عن ميادين تجربته فى الجزء الأول، فهو فى هذا الجزء رجل مسئول بكل ما تعنيه الكلمة من معانى، لكنه مع هذه المسئولية يحس بكثير من

الاغتراب، فهو يحس بالاغتراب مع الزملاء فى داخل مصر، ومع الزملاء فى خارج مصر، كما يحس بالاغتراب مع كثير من الأجواء فى داخل المجتمعات الاشتراكية، وفى خارج هذه المجتمعات، بيد أنه يجيد الحديث عن كل هذه الاغتربات وموقفه المبدئى والنهائى منها ● رفعت السعيد يقدم فى حديثه انطباعاته الذكية عن كثير جدا من محطات التيار اليسارى فى القرن العشرين، بيد أنه لا يفرض رؤى ثابتة بقدر ما يفتح المجال واسعا للفهم والتأمل والحوار، وهو يفعل هذا لا عن عجز عن التقييم والتصنيف والتوظيف، لكنه يفعله ليترك لنفسه وعقله الفرصة كى تتأمل الحقائق والنتائج فى بصيرة قادرة على إدراك الحق والصواب ● صاحب المذكرات عانى من أكثر من نمط متقدم من أنماط الاغتراب المركب إن جاز هذا التعبير ● ولنبدأ فى تناول أكثر هذه الغربات أهمية وقسوة وتأثيرا فى فكر صاحبها، وهى غربته حين أصبح مسئولا وممثلا لمصر فى مجلس السلام العالمى متعدد الجنيسات فإذا به فى نشاطه وأدائه يواجه مواجهة قاسية بما كان ممثل الاتحاد السوفييتى فى هذا المجلس يريد أن يمليه على توجهات المجلس فى نشاطه وفى مواقفه، وإذا هو يعانى من كثرة احتكاك ذلك الرجل به وتربصه بتصرفاته وآرائه بل تحرشه بنشاطه، وإذا هو يحس أن القرار الأصوب فى هذه الحالة هو أن يعود أدراجه إلى وطنه وأن يترك هذه المهمة لغيره● يدلنا على نوع آخر من الغربة عاناه فى وطنه حين وجد نفسه وهو محرر فى مجلة «الطليعة» عاجزا عن أن يتوافق مع رئيس تحريرها الأستاذ لطفى الخولى الذى بدأ يأخذ عليه مضيه فى سبيل آخر غير سبيله● نشير إلى أن هذا الخلاف المتصاعد قد وقع حين كان لطفى الخولى يسعى لأن يكون بمثابة الرجل المصرى الأول فى مجلس السلام بديلا عن خالد محيى الدين، بينما كان رفعت السعيد بكل ما أوتى من قدرة يعمل من أجل الحفاظ على مكانة أستاذه خالد محيى الدين، ومكانه فى هذا المجلس● يعتبر خلافه هذا مع لطفى الخولى بمثابة وقوع الواقعة، بينما يعلم أو يعلمنا أنه هو ولطفى الخولى كانا مجردين من إرادة التغيير على نحو ما نرى فى نهاية ما يرويه● يدلنا على نوع آخر من أنواع الغربة التى واجهها فى حياته اليسارية حين كان يفاجأ باستغلال القضايا الإنسانية واليسارية الكبرى استغلالا نفعيا يخلق منها قضايا فرعية صغيرة وضيقة الأفق على نحو ما حدث، وما اكتشفه هو نفسه صدفة من المتاجرة باسم حزب «التجمع» فى بيروت فى أثناء عصر الحرب الأهلية اللبنانية● إذا أتينا إلى موقف اليسار من قضية السلام والصراع العربى ـ الإسرائيلى وجدنا رفعت السعيد يعبر فى مواضع كثيرة عما كان يشعر به من الغربة تجاه زملائه من اليساريين الذين لم يفهموا خطواته التى خطاها من أجل تواصل الحوار العربى ـ الإسرائيلى الداعى إلى استخلاص العون للقضية العربية فى صراعها المرير مع إسرائيل والقوى الدولية المؤيدة لها● يحرص على أن يقص علينا قصة يشوش بها باقتدار وهدوء على

مبادرة السلام التى قام بها الرئيس السادات، وذلك من خلال الإيحاء الصريح بأنه هو نفسه كان قد عرف أن الاتصالات مع الإسرائيليين كانت قد بدأت قبل المبادرة بكثير، وهو معنى لم ينكره أحد من الرسميين المصريين حتى وإن لم يثبتوه، لكن رفعت السعيد، بما أوتى من قدرة، يسوقه كيما يدلنا على أن القنوات كانت متعددة، وأنه هو نفسه كان يعرف بوجودها منذ فترة وإن لم يصدق● يعترف أنه بسبب غربته مع اليسار المصرى وتوجهاته المتعددة كان قد اضطر فى بعض الأحيان إلى أن ينشر كتاباته باسم مستعار حتى لا يصطدم مع التيار الذى ينتمى إليه● يتحدث عن غربته مع بعض الفصائل الفلسطينية التى لم تكن حريصة على ذلك التقارب الذى بدأ بين حزب التجمع المصرى والرئيس مبارك فى بداية عهده، بينما كانت هذه القوى والفصائل الفلسطينية والعربية لاتزال حريصة على استمرار قطيعة اليسار عن رموز الدولة المصرية● صاحب المذكرات يحرز نجاحا ساحقا فى مواجهة هذه التيارات، ويستخدم بلاغته وقوة حجته وقدرته على الجدل فى مواجهة علنية من أجل الانتصار للخط السياسى الذى سار فيه حزب التجمع منذ ذلك الحين● يدلنا على ألذ أنواع الغربة التى عاشها حين وجد هو وأقرانه من مؤسسى منبر (ثم تنظيم ثم حزب) التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى صعوبة مذهلة فى الحصول على عشرة توقيعات لعشرة من أعضاء مجلس الشعب واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى من أجل استكمال الإجراءات الخاصة بقيام هذا المنبر، ونحن نرى درجة التشويق فيما يرويه رفعت السعيد عن هذه الوقائع عالية إلى حد مثير، وقبل هذا فإنها تقدم تقييما واضحا لرموز يسارية معروفة من وجهة نظر صاحب المذكرات● يتحدث بوضوح ضد توجهات القطب الناصرى والبرلمانى كمال أحمد وتصرفاته● الحلقة الأخيرة فى المسلسل المشوق المتميز الذى صور به بدقة ومهارة نشأة حزب التجمع حين كان لايزال منبرا، وقد انتهت هذه الحلقة نهاية سعيدة بانضمام قبارى عبد الله إلى الموقعين ليكونوا عشرة، ولينشأ منبر لليسار● ننتقل بعد هذا كله إلى طراز آخر من الاغتراب يمثله الاغتراب الذى أحس به صاحب المذكرات أمام القوة التى أصبحت بمثابة المهيمنة بمفردها على مقدرات السياسة الدولية فى عصر أحاديثة القطب● يتحدث حديثا مختلفا عن الحياة الأمريكية، وهو حديث مختلف فى كل مكوناته، مختلف فى معطياته، ومختلف فى بداياته، ومختلف فى نهاياته، ومختلف أيضا فى موضوعاته● الفرصة تتاح لرفعت السعيد لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية● يفاجأ بما اكتشفه فى نفسه من صعوبة أو استحالة تقبله لحديث الأمريكيين عن ديمقراطيتهم● يحرص على أن يضرب الديمقراطية الأمريكية فى مقتل حين يصفها بأنها ديمقراطية تقوم على التلقى فقط● يجد (بما تمرس به من قدرة على الجدل) أن فرصته لتحقيق الفوز قد حانت، وها هو يلتقط الفرصة (ولا نقول ينتهزها) ويبدأ فى رواية ما فعل وما أمكنه به أن ينتصر على دعاوى

الأمريكيين● يسرع فى روايته ليثبت دلائل نجاحه فى خطواته التى أربك بها الأمريكيين أصحاب ديمقراطية التلقين● لا يهمل الفرصة السانحة فى أحداث مذكراته وسياقها حتى يتحدث عن حقيقة مشاعر الأمريكيين تجاه السوفييت، وما كانت تعنيه حرب الكواكب بالنسبة للأمريكيين● يتطرق إلى نمط آخر من أنماط اللقاءات التى فرض عليه حضورها فى أمريكا، وهو يجيد تقديم صورة مشوهة من تفكير الأمريكيين المتغطرس تجاه مصالح الطبقات العاملة● يروى قصة محاولة جسورة قام بها أو اندفع إليها لاختراق المجتمع الأمريكى، لكنه يشعر فى أثنائها بالغربة، ويشعر بعدها بالعزة حين اكتشف الحقيقة، ومن اللافت للنظر أن هذه الحقيقة تمثل حقيقة مهمة جدا من حقائق صراعنا مع الإسرائيليين ودعاواهم المتعددة من أجل إكساب اعتداءاتهم أبعادا تاريخية أو عقيدية من قبيل الحديث عن القبيلة العبرانية الثالثة عشرة● يعبر عن سعادته أنه استطاع الثأر من الأمريكيين وأنه تركهم فى اللحظة المناسبة دون أن يستمتع ببلادهم على نحو آخر● يحدثنا بصدق شديد عن استمرار غربته مع التوجهات العقلية التى تحكم سياسات العالم وتصرفاته، فيروى فى مواضع عديدة كيف أتيح له أن يلم ببعض المعلومات المبكرة عن توجهات وخطط مستقبلية كان الغربيون (والأمريكيون على وجه التحديد) يعملون من خلالها على إنهاء وجود التوجه السوفييتى فى السياسة الدولية!! وقد جعلته هذه المعرفة محصنا ضد الاندهاش من الأحداث التالية عند وقوعها● يروى كيف أنه عرف مبكرا بما كان يخطط فى الغرب لتداعى الاتحاد السوفييتى وإخفاء نفوذه من على الخريطة العالمية، وهو ينسب هذه المعرفة إلى الصحفى الفرنسى اللامع أريك رولو مشيرا إشارة ذات معنى!! إلى أنه مصرى قديم، وإن كان فرنسى الجنسية● يحدثنا فى بعض فقرات مذكراته بإنصاف شديد عن مجموعة من الذين يرى حقا لهم عليه أن يثنى على سلوكهم، وعلى تاريخهم، وعلى ما تبدى له من صفاتهم الرائعة التى وثقت علاقاتهم به● الأستاذ عبد الرحمن الخميسى فى مقدمة هؤلاء، وهو يحدثنا عن تجربته المبكرة فى معرفته حين قدر له أن يلقاه وجها لوجه من دون أن يعرف أنه (وهو الكاتب الكبير المعروف) شيوعى منظم ومكلف بدور، وقد أكبر رفعت السعيد فى عبد الرحمن الخميسى أن يصبح شيوعيا وهو فى قمة شهرته● يروى لنا ما حصل عليه من أسرار من خلال ثقة الخميسى به وهما فى بغداد بعد أن كان عبد الناصر قد أصبح فى ذمة الله● يلخص حياة يوسف منصور صديق وجهاده من أجل الوطن على نحو غير مسبوق ● يروى هذه الحياة على لسان يوسف صديق نفسه، وإن كانت الصياغة تحتمل تدخل رفعت السعيد فيها● الصياغة الموحية التى حرص رفعت السعيد أن يبدأها بأبيات للجواهرى كان يوسف صديق يتمثل بها على الدوام● موقف «حدتو» (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩)، حيث ضربات البوليس توالت، وتلاحقت، لتدمر كثيرا من آليات وممكنات العمل● يحظى خالد محيى

الدين بأروع صور تقدير رفعت السعيد وأبلغ العبارات الدالة على هذا التقدير، وربما لا نجد فى أدبياتنا السياسية كلها مثل هذه العبارات الممتنة من صديق لصديق أكبر منه، أو فلنقل من مريد لشيخه● من بين الأوروبيين جميعا يتحدث الدكتور رفعت السعيد أيضا عن أستاذه الألمانى راثمان حديثا حافلا بالحب والحرارة، لكنه مع هذا لا يخلو من ملامح حديث صاحب المذكرات نفسه عن غربته● ينتقل إلى الحديث عن جوهر موقف راثمان المفكر الماركسى حين وقعت الواقعة وسقط حائط برلين وانتهى الاتحاد السوفيتى.

***

الباب الرابع: مذكرات محمد يوسف الجندى الجزء الأول

● التعريف بصاحب المذكرات ● الجندى يكتب فى مقدمة الجزء الأول من مذكراته ما يعبر به عن مبادئه ● يتحدث عن مقدمات انتمائه إلى الحركة الشيوعية، وإلى منظمة «اسكرا» على وجه التحديد ● لا يذكر الأسباب التى دفعته إلى قبول الانتماء إلى اسكرا دون غيرها من المنظمات الشيوعية الأخرى ● يقدم لهذا الحديث عن الانتماء للشيوعية تقديما سريعا ذاكرا أنه فعل ذلك لأنه لم يكن ليقبل بالحلول الوسط التى كان غيرها يتبناها، وهو يتخذ جمال العطيفى نموذجا لهؤلاء، كما أنه لم يكن بقادر على أن يتقبل رؤية محمد عصفور الدالة على نمط من أنماط تفكير الطبقية ● يقدم ملخصا لبانوراما الحركات الشيوعية التى وجدت فى الفترة التى انضم هو فيها لإحداها ● يتحدث عن نشاطه فى أول خلية شيوعية انضم إليها فيوحى إلينا بخيبة أمله حين رُفض اثنان من مرشحيه الذين حاول تجنيدهم، وحين اكتشف فيما بعد سنوات رداءة موقف زميله صلاح نصار الذى كان قد جنده، وذلك عندما حقق معه صلاح نصار وهو رئيس للنيابة ● يأسف لموقف الدكتور محمد لبيب شقير الذى كان يردد الحديث عن مميزات الملكية ● فى وسط هذا كله فخور بأنه كان هو الذى جند الناقد السينمائى مصطفى درويش ● علاقاته فى إطار الانتماء للشيوعية فى خارج هذه التنظيمات وداخلها ● يوحى عن قصد بأن الحياة والحوارات السياسية كانت متواصلة بين الأقران والزملاء على اختلاف توجهاتهم ● ما يرويه محمد يوسف الجندى عن قصة اعتقاله الأول ● تدل روايته على قدر من السذاجة الطبيعية، كما تدل على المفارقة التى تتمثل فى سعادة الشيوعى بأن يشيع عنه اتهام بعيد عنه، لكنه يراد به تشويه صورته وصورة الشيوعيين، ومع أن هذا الاعتقال لم يدم أكثر من أربعة أيام فإنه مهد لتأكيد انتماء محمد يوسف الجندى إلى الحركة الشيوعية للأبد ● اللحظة الفاصلة التى تخلى فيها محمد يوسف

الجندى عن ثروته من أجل أن يصبح شيوعيا محترفا • آثر فى لحظة توحد مع الشيوعية أن يتخلى عن كل ممتلكاته حتى يثبت لنفسه إيمانه وانتماءه بالشيوعية دون غيرها • قرر أن يتنازل عما استطاع التنازل عنه من أمواله وأطيانه الكثيرة وأصبح شيوعيا محترفا • يتحدث حديثا حماسيا عن إحساسه المبكر حين تخلى عن كل شيء من أجل الشيوعية رغم نصح الناصحين، ومن الطريف أن الثائر الوطنى يوسف حلمى كان واحدا من الناصحين الذين قدر له أن يعتذر عن قبول نصائحهم • ما يرويه عن مولده ونشأته فى بيت يوسف الجندى معتزا بذاكرته التى تذكر الأحداث الوطنية التى مرت به حين كان عمره أربع سنوات فقط • نجد فى روايته امتزاجا بالمعتقدات الطبية الشائعة، وحديثا عن طبيب أنقذ حياته، وهو لا يلتفت إلى أن هذا الطبيب بالذات أصبح وزيرا ليوم واحد هو اليوم السابق على قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ • فقرات محمد يوسف الجندى على صغرها تحفل بكثير من ملامح التاريخ الاجتماعى والصحى فى أسرة مصرية ميسورة من أسرات ذلك العهد • الفقرات تعكس ثقافة صاحبها اللاحقة فيما يتعلق بفترات الحمل والولادة، وصحة الأم، وأسباب العدوى، وفائدة الرضاعة الطبيعية، إلا أن أسلوبه فى تسجيل هذه الأحداث يكاد يكون قريبا من أساليب السيدات المصريات فى رواياتها على هذا النمط المبسط، وهو ما يدلنا على مدى ما كان يتمتع به الشعب المصرى من رابطة اجتماعية وثقافية قوية تكاد لا تخرج به عن أن يكون أسرة واحدة مهما كانت انتماءاتها السياسية والعربية والاجتماعية والمذهبية • حديث محمد يوسف الجندى عن والدته وعلاقات أسرته الاجتماعية • علاقة والديه بعضهما ببعض، وهو لا يبخل على والده بذكر ما يدل على مشاعره الأبوية الجميلة، لكنه يشير إلى توثق ارتباطه هو واخوته بوالدتهم بأكثر من ارتباطهم بوالدهم الذى كان مشغولا على الدوام • مع أن محمد يوسف الجندى لم يعش مع والده عمرا كثيرا، إذ توفى والده فى ١٢ ديسمبر ١٩٤١ قبل أن يبلغ التاسعة والأربعين، بينما كان هو على مشارف السنة السادسة عشرة من عمره، إلا أنه يذكر باعتزاز بعض انطباعات والده عنه • يقدم لنا أكثر من نموذج معبر عن الصداقات العائلة التى تنشأ فى المجتمع نتيجة للجيرة والزمالة فى المدرسة، وكيف تمضى هذه الصداقات مع نهر الحياة • ما يروى به بدايات صداقة جمال العطيفى وأسرته له ولأسرته • لا يبخل علينا بما ينبئ بوضوح عن حدود المسموح به والممنوع والمعتاد فى مثل هذه الصداقات فى عقلية رب أسرة كان من زعماء الوفد الكبار • نقلنا من حديثه مثلين لما كان ممنوعا، ومثلا لما كان معتادا • يتحدث عن هذه التقاليد بما يشبه الاعتذار أو التبرير، وما كان أغناه عن هذا الاعتذار أو التبرير • ينبئنا (فى موضع آخر) عن أن هذه التقاليد العائلية المحافظة قد شكلت طباعه، وحكمت تصرفاته فيما بعد ذلك • صاحب المذكرات ينفرد بذكر رواية مختصرة عن اليوم الذى رشح فيه

والده وزيرا للمعارف فى وزارة النحاس باشا، وهى واقعة معروفة، فإذا هو يضيف إلى ما ذكرته أدبيات التاريخ والمذكرات ما ينفرد به من أن والده لبس ملابس التشريفة ليحلف اليمين، لكنه عاد دون حلف اليمين، وهو يردف هذا بالحديث الصريح عن محاولة القصر استمالة والده ضد الوفد نفسه، وهو يبدى أسفا يسيرا لأن والده لم يحصل على الباشوية مع أقرانه ● يشير إلى موقف معروف لوالده حين لم يلتزم بما كان الوفد قد رآه من ضرورة استقالة النواب والشيوخ الوفديين ومقاطعة البرلمان احتجاجا على تزوير الانتخابات، فى عهد محمد محمود، وهو فخور بأن «إيجابية والده» كانت أكثر فائدة للوفد والوطن ● يحرص على أن يذكر أن علاقته بالفكر الاشتراكى بدأت بمفارقة طريفة، ذلك أنها بدأت من خلال قراءته كتابا يرفض الاشتراكية ويقدم الحجج ضدها، وليس هذا بالأمر المستغرب فى مثل هذه الانتماءات الفكرية التى تقوم أساسا على الاقتناع لا على مجرد الإيحاء، لكننا نكون ظالمين إذا نحن تغاضينا عن الإشارة بموضوعية المؤلفين اللذين حرصا على ذكر الحقيقة ● أما بداية ارتباط محمد يوسف الجندى بالحركة الشيوعية ارتباطا عضويا وتنظيميا فهو لا يصورها إلا بعد أكثر من عشر صفحات من هذا الحديث الباكر حيث يردف أن جمال العطيفى الذى لم يمارس اليسارية بعد ذلك أبدا كان هو الذى دعاه إلى ذلك اللقاء الفارق الذى تحول بعده إلى اليسار ● يعترف بالفضل لدار الأبحاث العلمية فى التحول الفكرى الذى حدد خطى حياته وتوجهاته ● على عادة الشيوعيين لا يبخل علينا بمن يريد أن يذكر أنه تعارف بهم فى هذه الفترة الباكرة، وكما تعودنا فى مثل هذه الأدبيات اللاحقة فقد كان هناك آخرون بالطبع، لكن الروايات الانتقائية فى روايات الشيوعيين عن تاريخهم تحرص على أن تنتقى الأسماء التى كان لوجودها واقترانها دلالة ● يحدثنا عن إرهاصات أكثر تبكيرا فى علاقته بالحركة الاشتراكية، والفكر الاشتراكى، فنفهم مما يرويه أن الدعاية السوفيتية فى تلك المرحلة كانت قادرة على أن تتيح كثيرا من أدبيات اليسار فى متناول جموع كبيرة من الشباب فى مقتبل أعمارهم ● نفهم أن الانتصارات السوفييتية لعبت دورها الإنسانى والفعلى فى إقناع الشباب بعظمة الفكر الذى كان وراء السياسة التى انتصرت قواتها ● لعل مثل هذه الدروس الواضحة تقنع أهل الفكر فى بلادنا بجدوى النجاح وآثاره، وأهمية التعويل عليه فى نشر الفكر ● يحاول أن يشعرنا أن انتماءه للحركة الشيوعية لم يكن بالأمر المستغرب، وإنما كان أمرا طبيعيا، بيد أن حديثه هذا الذى استخدم له ثلاثة محاور دفعنا إلى إدراك حقيقة أن محمد يوسف الجندى كان يحس بغربته بعدما اعتنق هذا الفكر الشيوعى، وهو لهذا يدافع لنفسه عن إحساسه بالغربة ناسبا توجهاته الفكرية إلى أحاسيسه الوجدانية ● لا يفوته أن يروى أن انتماءاته الأولى كانت وفدية فى مقابل ما كان شائعا فى شباب جيله المتحمسين، ومنهم بعض أصدقائه، من الانتماء

إلى مصر الفتاة • نأتى إلى اللحظة الفارقة التى جعلت محمد يوسف الجندى لا ينام فى ليلتها من الانفعال • لا ينسى محمد يوسف الجندى أن يعبر عن غربة اليساريين تجاه عائلاتهم وكيف كانت هذه العائلات تضيق وتحتج وتحاول الإقناع بالترغيب والترهيب • نموذج طريف من نماذج ترهيب الأهل لأبنائهم للبعد عن الحركة الشيوعية، وهو ترهيب طبيعى ومرتب ومستند إلى حقائق• اغتراب الهروب الذى مارسه باقتدار وحنكة • فقرات سريعة متلاحقة الأنفاس يروى بها محمد يوسف الجندى تجربته مع الهرب من السجن، والعيش هاربا من أعين البوليس بكل ما تحفل به هذه الفقرات من تجارب إنسانية وعاطفية • أكثر تجارب الهرب والاستخفاء خلودا فى ذاكرته، لما فيها من اختلاط الهرب بالعاطفة، وتعبير العاطفة عن نفسها بصورة رومانسية • محمد يوسف الجندى يتأمل فى أثر هذا الهرب كله على حياته، ويقدم وجهة نظره فى تحليل ما تكون أو تطور فى صفاته الشخصية التى ترتبت على هذه الحياة • يتأمل تأثير أدبيات الماركسية المحتمل على تفكيره • يروى قصة هربه بالسفر إلى الخارج، التى تتوج مراحل هروبه واغترابه فى داخل وطنه • تطلعنا القصة على كثير من تفصيلات علاقات الشيوعيين المصريين بالشيوعية الدولية، والدور الذى كان البمبوطية المصريون يقومون به، والدور المقابل الذى كان البحارة الفرنسيون يقومون به أيضا • فى تصويره للحظات الحرج التى عاشها فى قاع المركب يبدو فزعا، لكنه ربما أنه لا يعرف أن الجيل الجديد من شباب مصر الذين يحاولون الهرب من أجل لقمة العيش يعيشون الآن تجارب أكثر صعوبة ومرارة من تجربته هذه • يعبر عن إحساسه الشديد بالاغتراب فى الأيام الأولى من هجرته فى باريس، إلى درجة أنه يوحى بأن حياته فى السجن كنت أرحم من حياته فى الهجرة • يبدو أن هذا الإحساس الذى انتاب محمد يوسف الجندى وسيطر عليه قد تضاعف بسبب مقارنته حاله بحال زميله شريف حتاتة، الذى كان قد سبقه إلى فرنسا، فضلا عن أنه كان أكثر منه تأقلما مع المجتمع الغربى بسبب تربيته والدته الإنجليزية وما تعلمه منها على مدى عمره • تقييمه لتجربته فى السجن الفرنسى : نفاجأ بشعور الغربة ينتابه بشدة حتى إنه يعتبرسجون فرنسا أقسى من سجون مصر مقدما أسبابا لا تبرر مثل هذا الحكم الذى لم يصدر إلا عن شعوره بالغربة • يتحدث عن خروجه من فرنسا إلى المجر على نحو ميكانيكى لا نشعر فيه بشوق إلى المجر وما فيها، ولا أسف لترك باريس وما فيها، وربما كان عذره فى هذه الميكانيكية أن هذه الفترة ارتبطت بمسئوليته غير المباشرة عن القبض على زميله شريف حتاتة الذى ذهب لمقابلته ولم ينتبه إلى حقيقة بديهية وهى أن محمد يوسف الجندى كان تحت المراقبة • يلخص تجاربه فى أثناء الفترة التى قضاها فى المجر فى فقرات لاهثة، نحس فيها بما كان يشعر به من غربة على الرغم من وجوده بين مَنْ يشاركونه العقيدة الشيوعية، لكنهم، شأنهم شأن الشيوعيين، كانوا يعبرون عن الانقسام

والاختلاف بصور صارخة، وربما فظة • حديثه عن واصل فيصل ويوسف فيصل وخالد بكداش يصور المعاناة الحقيقية التى عاشها محمد يوسف الجندى مبكرا وأصبح يتذكرها كلما حدث انقسام مماثل بين مَنْ كانوا شيئا واحدا • نلاحظ أن الشغل الشاغل الذى ظل يؤرق محمد يوسف الجندى فى المجر كان هو اعتقال زميله شريف حتاتة، وشعوره بالإحساس بالذنب فى مسئوليته عن هذا الاعتقال • يصدقنا القول بقسوة غربته فى المجر إذا ما قورنت بغربته فى باريس • يستعيد سعادته وذلك عند لقائه بأهل وطنه، يتحدث عن إحساسه بالشفاء عند رؤيته لهؤلاء • يصل إلى اكتشاف سبب نفسى فى أمراضه التى مر بها • يلخص أكثر من تجربة من التجارب التى ارتبط فيها بعلاقة بالجنس الآخر • شبح عقيدته الشيوعية والإنسانية كان كفيلا بأن يفسد عليه آليات الحب والعاطفة المنطلقة • ينقطع عن فتاة يهودية كانت تكره النظام الاشتراكى وتهاجمه باستمرار وتدافع عن أمريكا والغرب، لكن حظها معه شاء لها أن تخطئ خطأ كبيرا حين تعاملت بفتور مع صديقه عبد القيوم بسبب لون بشرته • يتحدث عن تجربة للمجر الاشتراكية حديثا موجزا ودقيقا نشعر معه بما كان هو نفسه يعانيه من الاغتراب وهو يعيش هذه التجربة التى لا يجد حرجا فى نقدها بصوت عال، وأن يدلنا على بعض المظاهر الصارخة لنقدها • نأتى إلى مستويات نادرة من الثقة بالنفس، والشجاعة الأدبية، فنحن نرى محمد يوسف الجندى وهو لا يجد أى غضاضة فى الاعتراف بأنه كان يستخدم الملابس التى تأتيه هدية من أخيه • شعور محمد يوسف الجندى بالاغتراب حين أتيح له أن يخرج من مهجره للمجرى إلى ألمانيا حيث التقى هو وصديقه يوسف حلمى بخالد محيى الدين ثم إلى باريس بعد أن غاب عنها أربع سنوات • معاناته التنظيمية وهو فى باريس (بل وهو لايزال فى بودابست قبل أن يصل إلى باريس) من خضوعه لقرارات الحزب الشيوعى المصرى الموحد، وهى قرارات جاء على العكس من اقتناعاته، وسرعان ما تفرض الاقتناعات صراعها مع الالتزامات منشئة غربة جديدة لمحمد يوسف الجندى تضاف إلى اغتراباته المتتالية • الظروف تمضى به فى اتجاه يزيد اغترابه، إذ سرعان ما يختلف هو نفسه مع زعيمه القديم هنرى كورييل، وكان السبب فى اختلافهما هو الموقف من عبد الناصر • باريس فى هذه المرة لم تكن إلا محطة يعود منها إلى مصر، وقد تم ترتيب عودته عن طريق السودان • حين يصل محمد يوسف الجندى إلى القاهرة عن طريق السودان فإننا نراه يلهث من العودة إلى وطنه • يسجل كثيرا من مواقف الرفاق فى هذه الفترة التى شهدت الإفراج عن بعض المعتقلين وبقاء بعضهم (كمال عبد الحليم) مبعدين عن نشاط الحزب بناء على الاتفاقات الشيوعية • يتحدث عن بعض الصراعات الشيوعية ـ الشيوعية فى هذه الفترة، وعن نجاحه فى إعادة كورييل وكمال عبد الحليم إلى موقع القيادة فى الحزب، كما يتحدث عن نشاط الحزب الشيوعى فى حرب ١٩٥٦ • تأمل

محمد يوسف الجندى الناضج لقصة زواجه الأول واضطراره هو وزوجه وزملاؤه إلى التآمر من أجل إتمام هذا الزواج على نحو ما تم، مما كاد يتسبب فى كوارث ● الاعتراف الجميل الذى يلقيه على أسماعنا، وهو اعتراف يكاد يغير من عقائدنا عن الزواج بوجه عام، لكننا ينبغى ألا ننسى أن هذا الزواج الواثق تم فى داخل تنظيمات شيوعية ● يتحدث عن اعتقاله (فى مايو ١٩٥٩) بعد بدء اعتقال الشيوعيين بخمسة شهور ● يلخص قرار اتهامه فى هذه القضية ويعرض بعض ما قاله فى المحكمة ● يتحدث عن المفارقة المتمثلة فى أن المعتقلين الذين حصلوا على البراءة (وكان هو نفسه واحدا منهم) كانوا يعاملون بأسوأ من الذين صدرت عليهم أحكام، ومع ذلك فقد خرج هؤلاء وأولئك فى أوقات متقاربة ● يلخص بعض مظاهر التعذيب فى أوردى أبو زعبل تلخيصا تقشعر له النفس، ولسنا بقادرين على أن ننقل مثل هذه الفقرات القاسية، لكننا نجتزئ منها هذه الفقرة التى يتحدث فيها محمد يوسف الجندى عما سبق وفاة شهدى عطية من تعذيب ● نصل إلى مفارقة شديدة تتمثل فى حضور زوج أخته مكلفا من النائب العام للتحقيق فيما تردد عن التعذيب، لكنه لم يستطع أن يتحمل المناظر البشعة، فوضع يده على وجهه وخرج على الفور، وقد حدث هذا دون أن يتعرف عليه محمد يوسف الجندى نفسه ● اللحظات التى شهدت تلقيهم أحكام المجلس العسكرى، وما تلا هذا الحكم من انتقال إلى أبى زعبل إلى سجن الواحات، وهو الانتقال الذى تم عن طريق «الحجلة» الرهيبة على نحو ما نقلنا تصويره عن ألفريد فرج ● يلخص محمد يوسف الجندى فترة بقائه فى سجن الواحات فى عبارات سريعة مع أن هذه الفترة طالت (بالنسبة له) ثلاث سنوات، ومع أن بعض الشيوعيين كانوا هناك منذ ١٩٥٣ و١٩٥٤ ● زوجته كانت لا تستطيع أن تأتى لزيارته وهو فى المعتقل إلا من خلال الزعم بأنها تأتى لزيارة مسجون آخر محكوم عليه (وهو محمد عمارة)، أما ابنه الذى كان قد تعود رؤيته من وراء القضبان فقد أصبح يخطط القضبان على الورق ● يبدو محمد يوسف الجندى ككثيرين من الشيوعيين منخدعا فى نوايا عبد الناصر تجاه الشيوعيين، ومتصورا أن جماعات أخرى كانت تستطيع إجبار عبد الناصر على عدم الإفراج عن الشيوعيين ● يثنى على كثير من زملائه الشيوعيين فى سياق حديثه ● يتحدث عن يوسف حلمى وشجاعته حديثا جميلا ينفرد فيه بما لم يذكره غيره من أن يوسف حلمى بعث إلى عبد الناصر ببرقية شجاعة ينتقص فيها من وطنية الزعيم حيث قال إن مصر بالنسبة لعبد الناصر نفسه تعتبر جهة أجنبية!! ● ثناؤه على زميله اليهودى المصرى الفرنسى يوسف حزان الذى جاء مصر سائحا من فرنسا لكن المباحث لم تسمح له بالبقاء فى مصر ورحلته فى اليوم نفسه إلى فرنسا ● لا يبخل علينا بذكر أواصر المصاهرة التى ربطت عائلته بكثيرين من مشاهير السياسة، وعلى سبيل المثال فإن ابنة عمه تزوجت من ابن عم الرئيس

مبارك، وكان ضابطا يدعى عادل مبارك ● وعلى سبيل المثال أيضا فإن عمه الدكتور عبد العزيز تزوج ابنة عطية باشا إسماعيل، ابن خال إسماعيل صدقى عدو الوفد اللدود على حد تعبير محمد يوسف الجندى، لكنه فى (ص ٧٨) يذكر هذه المصاهرة بصيغة أخرى، وهى أن عمه تزوج ابنة منصور باشا إسماعيل، ابن عم إسماعيل صدقى.

***

الباب الخامس: مذكرات محمد يوسف الجندى الجزء الثانى

● حديثه عن خروجه من السجن فى ١٩٦٤، بعد غياب طويل عن زوجته وابنه ● يتصور أننا سوف نفاجأ حين نجد أن ابنه الذى لم يكن قد بلغ الخامسة قد عرفه ● غربته الفكرية فى أثناء عمله فى التنظيم الطليعى للاتحاد الاشتراكى ● نراه مضطرا إلى الاصطدام بقيادات الاتحاد الاشتراكى المحلية، وترينا المذكرات أن وجود اليساريين القدامى من أمثاله فى التنظيم الطليعى كان بمثابة أمر مقلق لقيادات عهد الثورة التقليدية، وذلك بسبب رغبتهم فى السيطرة على التنظيم ورغبتهم فى إخضاع التنظيم للهياكل التى تعودوا عليها فى مثل هذا العمل السياسى، على حين كان اليساريون الذين تربوا على غير هذا الفهم يعانون من سيطرة هذه الروح، ويحاولون تغييرها فيصطدمون فى فئة لابد للثورة من أن تتخلص منها ومن آرائها ● حقيقة موقفه وموقف زملائه من العمل السياسى فى ظل الثورة ● يعترف أنهم كانوا مؤمنين بضرورة استمرارهم فى العمل السياسى الذى بدأوه من قبل، ومع هذا فقد استبعد من التنظيم الطليعى ● هذه على ما نعرف أول مذكرات يعترف فيها صاحبها باستبعاده المبكر من مثل هذا التنظيم بعد ممارسة النشاط فيه، لكنه لم يخسر كل شىء بسبب علاقته الجديدة بالثورة، ذلك أنه حقق بعض المكاسب من قبيل أن اسمه قد رفع من قائمة العزل السياسى (!!) وكأن هذا الرفع إنجاز، بينما العزل نفسه جزء من ظلم الثورة له ولأمثاله ● الاغتراب السياسى الذى شعر به هو وزملاؤه ● يلخص موقف المنظمات الشيوعية من نظام الرئيس عبد الناصر، وهو يدلنا فى بساطة شديدة، وصراحة أشد على أنه هو وزملاءه أصبحوا كالغنائم التى وزعت على مراكز النفوذ والفكر فى نظام عبد الناصر، وعلى سبيل المثال فإنه يذكر أربعة أقطاب اختص كل منهم مجموعة من اليساريين، حتى وإن كان أغلب الأعضاء قد ارتبطوا بأحمد فؤاد ● يعترف بمدى صعوبة العمل من خلال الاتحاد الاشتراكى، ويذكر صراحة أن القوى المعادية للاشتراكية داخل السلطة كانت أقوى من مجموعات الشيوعيين السابقين الذين عملوا من خلال التنظيم الطليعى، وأن ميدان هذه القوى لم يكن يقتصر على السلطة، وإنما كانت قوة هؤلاء تمتد إلى داخل التنظيم الطليعى، ونحن نفهم بالطبع ما يجهله محمد يوسف الجندى أو ما

يتجاهله من أن نظام عبد الناصر لم يكن على استعداد على الإطلاق لأن يعطى له ولأقرانه اليد العليا فى تنظيمات السياسة، وإلا كان هذا اعترافا منه بالعجز والفشل، وربما كان السياسيون التقليديون الأكثر وعيا بعبد الناصر وبالتاريخ يعرفون أن مجابهتهم العنيفة لهؤلاء الشيوعيين كفيلة بارتفاع أسهمهم عند عبد الناصر، وعند النظام !! وهذا هو ما حدث بالفعل ● الوظائف التى تقلدها بعض الشيوعيين ضمن نظام عبد الناصر فى مرحلته الأخيرة ● فقرة لمحمد يوسف الجندى لا تخلو من التشويش والأخطاء التاريخية، وبخاصة فى تعاقب التواريخ والأحداث، وإن لم تخل من كثير من الصواب فى وقائعها، لكن العجيب أن هذه الفقرة تأتى مباشرة عقب حديث محمد يوسف الجندى عن القوى الأخرى التى قد يفهم منها القارئ أنها قوى غير شيوعية، فإذا هى قوى شيوعية على حد ما تعيه ذاكرة القراء العاديين، وإذا بصاحب المذكرات فى نهاية مذكراته يبدو وكأنه المعادل الموضوعى لجماعات التكفير (فى السياق الدينى) ● يتحدث عن الشيوعيين الآخرين بأسلوب هو أقرب إلى الحديث عن اللاشيوعيين ● يتحدث بحيادية لا يشوبها توتر ولا أسى عن محاولات فاشلة لإلحاقه هو وإبراهيم عبد الحليم بالعمل فى الأهرام، وهو يتعجب من موقف هيكل منه رغم صداقته الوثيقة بأخيه أحمد، ويبدو محمد الجندى من السذاجة بحيث لا يعرف طبيعة مثل هذه الصداقات، ولا طبيعة الانتهازيين ● حديثه عن ممارسته العمل الصحفى ● نبدأ بحديثه عن الفترة التى مارس فيها الصحافة الحقيقية فى مؤسسة «أخبار اليوم»، وهو يذكر للأستاذ إحسان عبد القدوس فضله، بما جبل عليه من توازن بين الفكر والعمل الصحفى، مما جعله يحرص على أن يساعده على أن يكتسب معرفة حقيقية بالعمل الصحفى كى يكون مفيدا لمؤسسة أخبار اليوم فى عمله الجديد كمراسل لها فى الاتحاد السوفيتى ● يلخص التوجهات التى قاده إليها كبار رجال الصحافة القائمين بقيادة وإدارة الإصدارات الصحفية فى ذلك الوقت ● يتحدث عن ممارسته للصحافة الحقيقية بعد أن أصبح مندوبا لأخبار اليوم فى الاتحاد السوفيتى ● من حسن الحظ أن هذا الحماس للصحافة سرعان ما ظهر فى سلوك محمد يوسف الجندى: وأدائه، مما أعطاه دفعة من الثقة بالنفس فى ذلك المجتمع الجديد ● يضرب المثل بنجاحه فى السبق إلى نشر خبر زيارة الزعيم بريجنيف لباريس قبل أن يعلن الخبر رسميا بثمان وأربعين ساعة ● حرصه على ذكر مثل صغير للطرائف الموحية بما كان عمله الصحفى يدفعه إليه من حرص على أدائه، وما كان يتسبب فيه من مشكلات طارئة مع البيروقراطية وذوى النفوذ ● يتحدث باعتزاز عن عمله فى وكالة أنباء الشرق الأوسط معتبرا هذا العمل بمثابة المدرسة الأولى التى تعلم فيها الصحافة ● نوع خفيف من الاغتراب الفكرى يتمثل فى اختلاف وجهات النظر (الأكاديمية)

حول الحركة اليسارية التى شارك محمد يوسف الجندى نفسه فيها ● يتحدث عن مناقشات فكرية دارت بينه وبين بعض المفكرين السوفيت حول الحركة الشيوعية المصرية، فيبدو أنه لا يستكين للمنهج الجاهز، أو الرؤية المسبقة، وكيف له أن يقبل هذا وقد عاش التجربة بنفسه، لكنه لم يكن متحمسا لأن يصوغ الحديث عنها بطريقة مكتوبة، حتى إنه يصل إلى الاعتراف بعدم تحمسه لإتمام الدراسة لدرجة الدكتوراه، على نحو ما كان فاقدا للحماس من قبل تجاه درجة الليسانس ● يعترف أن الطريق كان مفتوحا أمامه لنيل درجة الدكتوراه بعدما استمع أستاذ التاريخ له، وشجعه على تسجيل آرائه ● يتحدث عن اغترابه على مستوى العائلة، وهو يتحدث عن بدء الفتور ثم التوتر فى علاقته بزوجته الأولى التى كانت قد لحقت به فى موسكو ● يتحدث عن الظروف التى دفعته إلى أن يشرع فى زواجه الثانى مقدما المبررات له التى دفعته إلى أن يتم هذا الزواج، وهو لا يتحدث عن حتمية تتويج الحب أو الشبق أو الغرام بالزواج، وإنما هو حريص فى المقام الأول على أن يبدو وكأنه يعتذر لأسرته الأولى عن ارتباطه الثانى، ولهذا نراه يفيض فى شرح مبررات انفصاله عن زوجته الأولى ● يتحدث عن هذه الفكرة بأسلوب آخر يعبر عن شعوره العميق بالاغتراب على الرغم من وجوده فى وطنه، وبين أسرته، وهو يحاول أن يوازن فى أحكامه بين عيوبه هو نفسه وعيوب الطرف الآخر● يتحدث عن طريقة تعرفه على زوجته الثانية الروسية، نراه حريصا على أن يروى لنا كيف تعرف على أسرتها، وهو يسهب فى ذكر محاسنها، ويعدد المزايا التى كانت تتمتع بها هى وأسرتها ● يتحدث على حياء عن الظروف التى ساعدت على تطور معرفته بزوجته الثانية ● العوائق التى قامت فى سبيل إتمامه زواجه من زوجته الثانية، دون أن يشغل نفسه بعقد المقارنات بين حالتهما وبين الظروف المشابهة فى أية دولة غربية يمكن فيها إتمام مثل هذا الاقتران بسهولة ويسر● يقدم بعض عبارات المديح المتزن فى وصف سجايا زوجته التى جعلت اقترانه بها يحس بالتوافق الفكرى والنفسى، وكأنما عوضته غربته فى روسيا بهذا الاقتران الجميل ● يتحدث عن حضور زوجته الروسية وابنتهما إلى مصر، وهو يكرر التعبير عن إحساسه بالقهر تجاه تأخر موافقة مباحث أمن الدولة على زواجه ● يفيض فى الحديث عن تفصيلات حياة زوجته الروسية فى القاهرة، وتأقلمها مع الحياة فى القاهرة بكل ما فيها من مصاعب أو اختلافات عن الجو الذى عاشت فيه طيلة حياتها من قبل ● مواجهته الواقع فى موسكو بعدما كان فى ذهنه من توقعات مثالية عن مجتمع موسكو، وهو يلخص ما رآه من أزمات فى بعض المواد التموينية، ومن مظاهر الفساد والبيروقراطية فى الإدارة الحكومية ● مشكلات الحياة الاجتماعية وكثرة الإدمان وما يسببه من مشكلات زوجية ● معاناة المرأة فى

مجتمع الاتحاد السوفيتى ● حديثه عن إيجابيات الحياة فى الاتحاد السوفيتى، على الرغم من انتقاداته لبعض مظاهرها، وهو يعدد مزايا الحياة فى الاتحاد السوفيتى فيتحدث عن التأمين الاجتماعى، والصحى، ورخص الحياة فى المصيف، والمواصلات، والتعليم وكافة الخدمات، وهو يلخص الفارق فى الحياة بين موسكو وغيرها من العواصم الأوروبية فى الدول الرأسمالية ● يبلور رأيه فى عبارة واحدة تبدو موحية على الرغم من أنها تقليدية تماما ● انطباعاته عن زيارته الأولى للولايات المتحدة ● الحس الصادق فى تصوير الفارق الكبير بين نسق الحياة فى الولايات المتحدة والعالم كله، ومع أن بعضا من أنماط الحياة الأمريكية قد قدر له أن يسود حياتنا المصرية الآن مثل عمل التليفزيون بلا انقطاع، فأنت تستطيع أن تتخيل الأثر الذى أحدثته هذه الرحلة على صاحبها الذى عاش فى الاتحاد السوفيتى وفى مصر من قبل حياة يسودها نمط مختلف من الإحساس بالحرية والإنسانية، ووطأة الحكومة، وطبيعة السوق ● يعجب لشرب الأمريكيين للبن فى كل وجبة، كما يعجب لمهاجمة الرئيس الأمريكيين فى تليفزيون بلاده ● يتحدث عن عمله فى هلسنكى (عاصمة فنلندا) وعن انطباعاته عنها ● شعوره بوفرة البضائع، وسهولة الحياة وراحتها، لكنه مع ذلك حريص على الإشارة إلى افتقار هذه الحياة إلى النكهة، وهو يعقد مقارنات متميزة يجعل لموسكو فيها مكان التفوق ● يتحدث عن بعض أوجه أفضلية هلسنكى على موسكو، ذاكرا بكل تواضع (وإن لم يقترن هذا التواضع بالامتنان الواجب لهلسنكى) كيف هيأت له الظروف اليسيرة شراء سيارة انتقل بها إلى موسكو ثم جاء بها إلى مصر ● يتحدث عن الفترة التى عاشها فى براغ فنجده يشعر بالراحة من الاغتراب بعض الشىء، وهو يتحدث عن سهولة اللغة فى تلك المدينة وقربها من اللغة الروسية ● يرى فى العامل اللغوى انتصارا على مشكلات العامل النفسى المتمثل فى العلاقة المتوترة بين الروس والتشيك بسبب أحداث ١٩٦٨ ● تجربة المرض التى اجتازها محمد يوسف الجندى وهو مقيم فى العاصمة التشيكوسلوفاكية براغ، وكيف مر بمراحل متعددة من المرض بدءا من نزيف المخ، ثم اكتشاف السكر، ثم احتباس البول، ثم عملية البروستاتا، ثم العلاج الطبيعى، ثم العلاج فى مصحة ● مع أنه يحكى تجربته بمكانيكية شديدة فإنه يتحدث بامتنان وتقدير للنظام الطبى ونظام التمريض، وإتاحة العلاج المجانى، مما كان العهد به قائما فى هذه الدول الاشتراكية التى حافظت على البعد الاجتماعى فى سياساتها الخدمية لفترة طويلة.

***

● التعريف بصاحب المذكرات ● رءوف عباس يقدم أدق صورة يمكن تقديمها عن الفترة الأولى من عمر القطاع العام المصرى حين لجأت الدولة إلى وضع الشركات الخاصة التى أممتها وضمتها إلى هذا القطاع فى سياق جهازها البيروقراطى الضخم، ودفعت إلى كل شركة من شركات هذا القطاع بعدد من الموظفين الجدد كان منهم على سبيل المثال صاحب المذكرات ● يروى كيف استقبل هذه الوظيفة هو وزملاؤه الذين عينوا معه، وكيف تراوحت ردود أفعال هؤلاء حين وجدوا هذه الوظيفة، وكيف سارت بهم الأمور فيها ● تحت عنوان «مراجع الحسابات» يتحدث عن تجربة «طليعية» لموظف جامعى فى القطاع العام بعد التأميم، ومن المفيد أن نتعمق هذه التجربة التى يندر أن نراها مكتوبة بهذا التفصيل الدقيق، ومن وجهة نظر موضوعية وعلمية وبعيدة عن التعصب لاتجاه ما، فلا هى مؤمنة بالنمط الذى طبقت به الاشتراكية، ولا هى متيمة بالوضع فيما قبل الاشتراكية، وإنما هى وجهة نظر حريصة على تقديم الجانبين ● يلخص موقف هذه الشركة التى آلت إلى القطاع العام ● يلخص على نحو دقيق كيف جاءت به الصدفة هو وزملاءه إلى هذه الشركة، وكيف حسبت مرتباتهم ووظائفهم مع ما فى هذا التلخيص من تصوير جيد للخطوات البيروقراطية التى تتخذها الحكومات فى مثل هذه الإجراءات العمومية التى تحرص على المساواة العامة دون أن تشغل بالها بالتفصيلات الكفيلة بتنظيم أدق وأجدى ● يتحدث عن حسن حظه مقارنة بوضع الآخرين ● يتحدث عن تسكين أصحاب المؤهلات العليا فى وظائف الشركة وأقسامها المختلفة حديثا ساخرا ● يتحدث عن طبيعة وظيفته فى قسم المراجعة المالية حديثاً دقيقاً ومنصفاً وكفيلاً بأن يدلنا على أن الجدية والأمانة وحدهما تكفيان تماما لأن يقوم أى جامعى بوظيفته على نحو أمثل لو كانت الوظيفة بعيدة ظاهرياً عن تخصصه الدقيق ● يتحدث عن بداية الظروف التى هيأت له الاتصال بالحركة العمالية، مما كان له أثر بعيد فى تخصصه الأكاديمى نفسه فيما بعد ● من الإنصاف أن نبدى إعجابنا بأن هذا المؤرخ صور بداية هذه العلاقة على أنها نشأت نتيجة رغبته فى توفير النفقات، حيث أراد أن يفيد من امتياز الوجبات التى كان مطعم الشركة يقدمها للعمال، وقد كان فى وسع هذا المؤرخ العظيم أن يبدأ القصة بداية أخرى، لكنه آثر الأمانة والتواضع اللذين لا يصدران إلا عن ثقة بالنفس ● أصبح مشاركاً وإن لم يكن عضواً مشاركاً، فى هذا النشاط النقابى الذى بدأ يمارس ثورة عمالية على نطاق محلى، وها هو حس المثقف فى رءوف عباس يقود العمال إلى خطوات أكثر ثقة فى ثورتهم المحلية ● تتسارع خطواته إلى الاصطدام مع سلطة الإدارة متمثلة فى رئيس مجلس الإدارة

ومعاونيه ● سرعان ما تتطور الأمور ويتدخل الأمن فى الموضوع ● رءوف عباس يصور تدخل الأمن فى إطار الحفاظ على الأوضاع القائمة، وحماية مكاسب الإدارة لا العمال ● يرحب بالصراع مع الإدارة على حد قوله، ويلقى القفاز فى وجه الإدارة وأجهزة الأمن معاً، ومن حسن حظه أن تأتى الرياح بما يشتهيه، وتتدخل وزارة العمل لمصلحة العمال ● يحكى أنه مضى خطوة أوسع فى طريق عداوته للإدارة فتمكن من خلال موقعه الوظيفى من تسجيل خطأ ارتكبه رئيس مجلس الإدارة نفسه، وهكذا يبدأ معركة كان يعرف أنها غير متكافئة مع رئيس مجلس الإدارة، لكنه يبدأ وكله أمل فى الانتصار ● رءوف عباس يواجه بما يسبب له الإحباط لكنه لا يقع فى قبضة الإحباط ● يواصل حديثه إلينا عما رآه من الفساد، ويحدثنا عن أن هذا الفساد الذى رآه كان، فيما بعد قليل، بمثابة الدافع الذى حال بينه وبين قبول فكرة الانضواء فى تنظيمات السلطة وبخاصة منظمة الشباب الاشتراكى ● نرى رجلا قدر له أن يعمل فى القطاع العام لكنه لا يستسيغ هذا العمل فى ظل ما رآه من فساد، وهو لا ينفر من القطاع العام وحده، لكنه ينفر من كل التنظيمات السياسية للثورة !! ● كان من الطبيعى لشاب نابه مثله أن يتجه إلى إخراج طاقته فى الدراسات العليا، وهو ما حدث بالفعل ● نقرأ بإعجاب ما يسجله من حديث عن اختياره لموضوع رسالته فى الماجستير، ونراه يعترف بأن تجربته التى عاشها فى كفر الزيات كانت بمثابة الزاد الذى جعله يفكر فى موضوع رسالته ● يحدثنا أن أساتذته «الأحباب» كانوا يتوجسون من مثل هذا الموضوع، لكنهم سرعان ما تخلوا عن هذا التوجس ● أتاحت الدراسة العلمية لرءوف عباس أكثر من لقاء بعدد من الشخصيات المتميزة فى محيط الحركة النقابية العمالى والسياسى ● يحدثنا بإفاضة عن تجاربه فى مثل هذه اللقاءات التى كانت جديدة عليه، ويحرص على تقديم ماهو طريف فى هذه اللقاءات ● يحكى قصة لقائه بالأمير عباس حليم على نحو طريف ومؤثر ● لا يبخل علينا بتفصيلات القصة التى دفعته إلى البحث عن الزعيم العمالى محمد حسن عمارة والإفادة من السجلات التى كان يحتفظ بها للحركة العمالية ● من الطريف أن نتأمل طبيعة المفارقة فى رواية الأحداث، فعلى حين صب عباس حليم اللعنات على محمد عمارة لأنه لص سرق جميع أوراق الاتحاد، فإن المؤرخ بحاسته وفهمه يرى لقاء هذا الرجل على أكبر درجة من الأهمية للسبب نفسه، وهو أنه أصبح يملك هذه الأوراق ● كالعادة فى البحث العلمى فإن كل خيط يقود إلى آخر، وهكذا عرف صاحبنا سيد قنديل رئيس نقابة عمال الطباعة، كما عرف النقابيين الماركسيين محمد يوسف المدرك، ومحمود العسكرى، وأحمد طه ● أصبحت وظيفة هذا الباحث العلمى قريبة من ميدان التاريخ الاجتماعى والوطنى ● أصبح مجال بحثه العلمى قريبا من مجال السياسة ● أصبح مسلحا بالوعى السياسى الناشئ من الوعى التاريخى، وها هو

هذا الوعى يحدد موقفه من الثورة حيث نراه يحدثنا عن بعض ما أصابه من الاكتشاف المبكر لأخلاق ممارسة السياسة فى عصر الثورة ● يصف (بسخرية بالغة، وتحسر حقيقى) طريقة تنظيم المظاهرات الطلابية لمصلحة الثورة، وما كان يحيط بهذا التنظيم من تعطيل الدراسة، وإغلاق المكتبة، وتضييع وقت الطلاب، وتعويدهم على الفساد المبكر ● يصف توجهاته السياسية بدقة شديدة، لكنه، فى الواقع، يبدو مشمئزا من الأوضاع أكثر من قابليته للأمانى، ويبدو هذا فى نصه الذى يميل إلى النفى بأكثر من ميله إلى الإثبات ● يصنف نفسه فى النهاية على أنه واحد من الأغلبية الصامتة، وليس هذا بالأمر الغريب على توجه أمثاله فى هذه الحقبة ● يتحدث بألم حقيقى ومتواصل عن معاناته من الجوانب القاسية وغير الإنسانية فى تربية جدته له ● يعجب من أن يكون هذا الذى لقيه فى بداية حياته هو مصيره فى سنوات الطفولة الأولى على الرغم من وجود والديه على قيد الحياة ● رءوف عباس أفاد من خبراته الأكاديمية كأستاذ للتاريخ فى التعبير الدقيق عن هذه الدوافع تعبيراً يكفل تصديق الوقائع المترتبة على الدوافع على الرغم من قسوتها ● يروى رءوف عباس قصة قبوله فى إحدى المدارس الابتدائية ويجعلنا نشعر بمزيج من التعاطف معه من ناحية، ومن احترام النظام السائد فى ذلك الوقت مهما كان قاسيا فى مظهره ● رءوف عباس يقدم فى الكتاب لوحة نفسية نادرة يتحدث فيها فيما يبدو عن مدى قسوة جدته لأبيه عليه، وعن السبب الغريب الذى دفع إلى هذه القسوة، وهو كراهيتها لوالدته التى لم توافق على اختيارها زوجة لابنها، ومع أن مظاهر هذه القسوة لا تحتمل وتدفعنا إلى التعاطف مع مَنْ وقعت عليه وهو صاحب المذكرات، فإننا نرى انتصاره على القسوة أمرا حتميا فى ظل ما نعرفه عنه من إصرار على «التحقق» ● الأوصاف الدقيقة والذكية لبعض الأحوال الاجتماعية التى أجاد الدكتور رءوف عباس تقديمها لمن يريدون كتابة التاريخ الاجتماعى لمصر المعاصرة ● نبدأ بما يرويه رءوف عباس عن المظاهر العميقة والعفوية للوحدة الوطنية حين يقدم تصويراً رائعاً للعلاقة الحميمة بين المسلمين والمسيحيين من سكان عزبة هرميس، التى قدر له أن يقضى فيها فترة طفولته، وهو تصوير ليس بغريب عن الصورة الذهنية التى يعرفها سكان القاهرة ممن قدر لهم أن يحتكوا بأهل هذا الحى، وأن يدركوا عراقة الصلة بين أهله، وتأصل الوحدة الوطنية فى نفوسهم وسلوكهم، وتعمق حب الجيران والوفاء لهم ● يصف النشاط المدرسى فى مدرسته الابتدائية وصفاً دقيقاً يجعلنا نتحسر على ما آل إليه حال التعليم فى مصر، ويجعلنا نبحث أيضاً فى الوسائل التى قد تعيننا على العودة إلى هذا العصر الذهبى الذى كان موجوداً بالفعل قبل أن تقودنا سياسات متعاقبة إلى تفريغ التربية والتعليم من محتواهما ● يتحدث عن سماح والده له بممارسة السياسة ● نرى مظهرا مهما من مظاهر التاريخ الاجتماعى فيما يصور به فى دقة شديدة

وشغف محبب إلى النفس كفاحه من أجل التعليم الجامعى، وهو يروى أن هذا الكفاح كان يلقى معارضة شديدة من والده، لكن هذه المعارضة توقفت عند حدود المعارضة الشفوية • يروى كيف ساعدته الصدفة والروح العامة فى المجتمع والدولة على تحقيق هدفه فى النجاح فى هذا المسعى النبيل • حرصه على أن ينسب إلى ثورة ٢٣ يوليو الفضل الكامل فى التوسع فى منح المجانية، مقدما ما لم تقدمه الدولة الناصرية نفسها من أسانيد تؤيد فكرته التى يريد بها أن يصور الدولة على هذا النحو، ومن الحق أن نذكر أن هذه السياسات كانت قد بدأت منذ ما قبل ذلك فى وزارات الوفد، لكن كثيرين من قبيل رءوف عباس والأجيال التالية (حتى وإن كانوا من أساتذة التاريخ) يستسهلون عن حسن نية أن ينسبوها إلى عهد الثورة • يصور بدقة وإمتاع شديدين ملامح النظام الجامعى فى العصر الذى درس فيه، وما كان يتطلبه من تفرغ الطالب للبحث والعلم من خلال محاور دراسية متعددة وهو نظام كان فى حد ذاته كفيلاً بأن يدفع الطلاب إلى الاجتهاد والالتزام طيلة العام، بعيداً عن اللجوء إلى حيل أخرى لإبعاد الطلاب عن ممارسة السياسة من قبيل نظام التيرم، ولسنا ندرى لماذا لا تعود جامعاتنا إلى الأخذ بمثل هذا النظام القادر على أن يمكن خريجى الجامعة من القدرة على الكتابة والتعبير، وهى القدرة التى يفتقدونها الآن بشدة • يتحدث عن بعض الآثار الحميدة لهذا النظام، وهو إقبال الطلبة على قاعات مكتبة الكلية وقاعات دار الكتب المصرية نفسها • لا يفوته أن يتحدث عن حظ طلاب الانتساب من الجدية فى هذا النظام • يصل رءوف عباس فى ذكائه وإخلاصه إلى أن يصور عن طريق الأرقام مدى نجاح هذا النظام التعليمى الجاد فى تكوين كوادر متميزة أفاد منها الوطن بوضوح • نتنقل فى المذكرات بين كثير من الآفاق التى نجح أستاذ التاريخ الاجتماعى أن يصور بها طبيعة العصر الذى عاش فيه • لجأ إلى زوايا عديدة مكنته من أن يقدم لنا صورة نادرة فى صدقها وتعبيرها عن العصر وعن ظروف العصر وشخصيات العصر • أهم ما فى هذه المذكرات، فى رأيى، ليس هو حديثها عن صاحبها، ولا عمن انتقدهم، وإنما هو حديثها الذكى النبيل عمن رأى فيهم قدرة ومثلاً وقيمة تستحق التنويه • رءوف عباس قدم لنا أساتذته تقديما جميلا يستعصى على غيره من محبى العلم والثقافة والمنهج الأكاديمى • يتحدث بحب عن أستاذه الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى • يتحدث بالإعزاز نفسه عن أستاذه أحمد عبد الرحيم مصطفى الذى جعله قدوة له فى إنسانيته، وأستاذيته، وعمله، وفكره • حديثه عن أحمد عزت عبد الكريم يحفل بالإعجاب بشخصية وطريقة أدائه، وهو يحدثنا عن نمو إعجاب أستاذه به بطريقة تدريجية كفيلة بأن تعلم الطلاب المجتهدين كيف يستحوذون على حب أساتذتهم، كما أنه يرجع الفضل فى جذبه لانتباه أستاذه الكبير إلى ما علمه له أستاذه الشاب أحمد عبد الرحيم مصطفى من العناية بمادته قبل أن يحضرها على أستاذه فى

المدرج الكبير ● أستاذه الشاب صور للأستاذ الكبير مدى حرص رءوف عباس على التفرغ للدراسة، وهو ينتقل إلى الحديث عن أبوية ذلك الأستاذ الكبير، وهى أبوية من طابع الأبوة الناضجة الحانية المخلصة فى جيله المتميز ● يتحدث عن فضل أستاذه فى حمايته من بطش النظام الناصرى عندما فكر رجال المباحث فى الإيقاع به بسبب لقاءاته بمحمد يوسف المدرك الذى كان واحدا من قيادات الحركة العمالية الدولية، وكان شيوعيا تراقبه أجهزة المباحث العامة ● يجيد تصوير لقاءاته بضباط أمن الدولة المشهورين (أحمد إدريس وحسن المصيلحى) ● يغمرنا بحديثه الممتن لأستاذه وأبوته وإنسانيته ● يتحدث باعتزاز عن المكانة السامقة التى بلغتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى عهد رياسة أستاذه لها ● أما الدكتور محمد أنيس فقد كانت علاقته بصاحب المذكرات علاقة درامية لم تكن صافية تماما، ولا ودودة دائما، وإنما اعتراها ما يعترى العلاقات الدرامية من أحداث تجعل أحد طرفيها مستاء من الطرف الآخر دون أن يغير هذا الاستياء من نفسية الطرف الأصغر المحب لأستاذه ● يعترف لمحمد أنيس بكثير من الفضل فى تكوينه الفكرى، وبخاصة ما تعلمه منه من تحليل وتأصيل للمواقف السياسية بالاستناد إلى العلم بالتاريخ ● يتحدث عن عمله فى قسم «الأبحاث» فى جريدة «الجمهورية» تحت إشراف أستاذه محمد أنيس مقدما إشارات خاطفة إلى ما كانت الرقابة على الصحف تفعله بالأبحاث التى يقدمها المركز ● على غير عادة الكتابات المتاحة يحرص على اتهام فتحى غانم بأنه كان مثله كمثل الرقابة يحذف فقرات مما يكتبه الباحثون، ومن العجيب أنه عمل مع فتحى غانم ولم يؤثر ترك القسم عندما تركه أستاذه محمد أنيس ● خلافه البارز مع أستاذه محمد أنيس ● حرصه على أن يشير إلى أنه صارح أستاذه بموقفه دون أن يشرك طرفا ثالثا، لكن أستاذه أصر على موقفه وعلى وصفه بأنه عميل للمباحث!! ● يعترف لأستاذه محمد أنيس بالفضل فى إتاحة الذيوع النسبى لاسمه من خلال الفرصة التى أتاحها له النشر الصحفى ● يترحم على أستاذه محمد أنيس متمنيا، بعد فوات الأوان، لو كان أنيس قد توفى وهو راض عنه ● يحرص صاحبنا على تكرار ما ذكر أنه ذكره فى كل مناسبة عامة أو خاصة من تأكيد على أنه مدين فى تكوينه العلمى لثلاثة من أعظم أساتذة التاريخ الحديث فى مصر والوطن العربى هم: أحمد عزت عبد الكريم، وأحمد عبد الرحيم مصطفى، ومحمد أحمد أنيس ● يتحدث عن أستاذه عبد اللطيف أحمد على أستاذ التاريخ القديم حديثا منصفا ● يتحدث بإعجاب وانبهار عن أستاذ التاريخ الفرعونى أحمد فخرى ومدى ما كان يتغلغل فى نفسية ذلك الأستاذ العظيم من حب لتخصصه، ورغبة عارمة فى تحبيب تلاميذه فيه، ونشر الوعى بآثارنا وحضارتنا، ودور مصر القديمة فى الحضارة الإنسانية، فضلا عن دماثة خلقه، ورقة حاشيته ● وإذا كان هناك من مثل لعلاقة متطورة من علاقات

التلميذ بأستاذه فى هذه المذكرات فإنها علاقة رءوف عباس بأستاذه إبراهيم نصحى، الذى قدر له أن يكون سببا فى عدم حصوله على تقدير جيد جدا عند تخرجه، ثم قدر له أن يعرفه بعد تخرجه بسنوات، ثم قدر له أن يعمل تحت رئاسته فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ثم قدر له أيضا أن يخلفه فى رئاسة هذه الجمعية ● فى حديث رءوف عباس عن هذه المراحل تصوير جيد للمراحل نفسها، وتصوير جيد بل متميز لنفسية رءوف عباس وإدراكه للتطور الذى مرت به آراء أستاذه إبراهيم نصحى ● لا تخلو ذكريات رءوف عباس من إشارات ذات معنى إلى آرائه فى بعض المؤرخين الأجانب المتميزين، وهو على سبيل المثال يميل إلى تأييد رأى الدكتور محمد أنيس فى منع دعوة المؤرخ البريطانى برنارد لويس لزيارة مصر بسبب مشايعته للصهيونية ● يجيد تصوير المرحلة الفاصلة بين تخرجه فى الجامعة ودخوله إلى سوق العمل، وهى فترة مهمة من فترات عهد الرئيس عبد الناصر ● نفهم مما يرويه رءوف عباس ومما لم يذكره غيره ما كانت الأحوال الاقتصادية قد آلت إليه فى ظل قلة الوظائف والاستثمارات، مع كثرة الخريجين، لكن رءوف عباس مع هذا ينظر إلى الأمر من زاوية ظروفه الخاصة التى لم تكن لتسمح له بتحقيق ما حققه ● صاحب المذكرات يعتز بمشاركته فى بعض الإسهامات البارزة فى الحياة التربوية والجامعية فى بلاده، ونجتزئ من هذه المساهمات بما يحكيه عن نجاحه أو إسهامه فى إنشاء قسم للغة اليابانية فى كلية آداب القاهرة حين كان يقضى بعض الوقت لإجراء الأبحاث العلمية فى اليابان على نحو دقيق ● يحرص على أن يشيد بما يسميه «مكرمة الشيخ سلطان على الجمعية المصرية للدراسات التاريخية» ● بدأ يواجه مشكلاتها المتمثلة فى نقص التمويل بما اعتقد أنه السبيل إلى حل هذه المشكلة، فإذا به يلقى بعض العون من هنا وهناك، لكن مكرمة الشيخ سلطان القاسمى تأتى لتتوج كل ما قدم للجمعية ● فى مقابل هذا الحديث عن أريحية الشيخ سلطان القاسمى يأتى حديث آخر عن مناورات محمد حسنين هيكل، ووعوده التى لم تتجاوز حدود التلويح، هى سلوكيات ليست جديدة على مَنْ يعرفون تاريخه دون أن ينخدعوا فى الشراك التى لا يكف عن نصبها، والقصة التى يرويها رءوف عباس أبلغ من أن تحتاج إلى أى تعليق ● تقييم هذا المؤرخ المرموق لتجربة الزعيم جمال عبد الناصر ● يتحدث عن نفسه بأن شأنه شأن غيره من السواد الأعظم من الشعب المصرى من الفلاحين والعمال، كان صنيعة ثورة يوليو، ومن أصحاب المصلحة الحقيقية فى نجاح برنامجها، ولكنه لم يكن من «دراويش» الثورة الذين ينخرطون فى «أذكار» المناقب، بل كان ممن ينظرون نظرة نقد إلى الممارسات السياسية، فيقدر ما كان إيجابياً منها ● توجس خيفة على إنجازات الثورة، والاستفتاءات التى حولت هذه الآلية الديمقراطية إلى مهزلة حقيقية ● تعاظم دور الأجهزة الأمنية وتعددها ● كبت كل صوت ناقد

باعتباره معارضاً خارجاً على النظام • الزج بالفصائل السياسية المعارضة فى المعتقلات، حيث تهدر آدميتهم، وتشرد عائلاتهم • يبدى رأيه فى صراحة ووضوح منتقدا فهم عبد الناصر للحرية السياسية، وتضحيته بالفرص المتاحة لإشراك الشعب فى المسئولية مكتفيا بشعبيته هو وحده • رأيه فى أن عبد الناصر كان حذرا من الاعتماد السياسى على الجماهير • صاحب المذكرات ينصف نفسه فى إحجامه عن ممارسة العمل السياسى على نحو أو آخر بأن يصنف نفسه على أنه كان واحدا من الأغلبية الصامتة، وإن نسب لنفسه بعض الفضل الضئيل فيما كان يفضى به فى محاضراته أو كتاباته أو مشاركته المحدودة فى تأسيس جمعية الوحدة الوطنية.

***

الباب السابع: عمر فى العاصفة: مذكرات أحمد عباس صالح

• التعريف بصاحب المذكرات • مذكراته عن غربته الطويلة تدلنا على مدى ما يمكن لشرقى مثله أن يحسه فى مرحلة انتقال إلى المجتمع الغربى بكل ما فيه من اختلاف، وبكل ما فيه من مزايا ظل يفتقدها ويتمناها فى المجتمع الذى نشأ فيه • المذكرات تجيد تصوير شعور الشرقى الناضج وهو يتأمل حياته فى ظل نظم ليبرالية تحفظ حقوق الإنسان، وبخاصة حقه فى العلاج، والعمل، وتحافظ على هذه الحقوق من دون ضجة كبيرة، وتمنح المهاجر الجديد من طبقة أحمد عباس صالح فرصة الأمن الذى افتقده، وقد افتقده بقسوة • عاش القسوة بسبب هذا الافتقاد، وليس أدل على هذا من الفصل السابع والثلاثين «إعدام صديق» الذى وصف فيه تفصيلات نفسية مذهلة عن تصفية صدام حسين لزملائه الذين قادهم حظهم العاثر فى إحدى المناقشات إلى أن يحبذوا الوحدة مع سوريا، ومع صدق نوايا هؤلاء فى رأى أحمد عباس صالح فإن صدام لم يكن على استعداد لقبول فكرتهم فى إمكان التضحية بمنصبه (مثلا) من أجل قيام دولة عربية قوية على أساس الفكر البعثى • نستطيع أن نفهم مدى الإعجاب الحقيقى الذى يظهره أحمد عباس صالح ويعبر به عن تجربته فى الحياة فى لندن، وفصلا ثانيا جعل عنوانه يعبر عن هذا الإعجاب: مدينة لها جاذبية خاصة • يوظف معارفه النظرية التى ثمتها قراءته الأولى فى محاولة فهم مجتمع الإسلاميين فى بريطانيا أو فى لندن على وجه التحديد • المذكرات تقدم بقدر من التحفظ المصرح (إن جاز هذا التعبير) انطباعات صاحبها المبكرة عن معرفته بميشيل عفلق فى أثناء إقامتهما فى العراق • وربما كانت هذه المذكرات من أولى الأدبيات التى أطلعتنا على المعاناة التى كان يعيش فيها هذا الرجل الرمز فى الوطن العربى الذى كان يصوره للناس قائدا موجها، بينما هو فى حالة أقرب ما تكون إلى تحديد الإقامة • المؤلف أجاد التعبير عن مشاعره مع تجارب المرض التى مر بها

وهو فى خارج وطنه فى العراق، وفى ليبيا، وفى بريطانيا، بيد أن هذا التعبير كان فى مجمله تعبيرا آليا ميكانيكيا لا يكاد يقارن بمشاعره الصادقة والدافئة فى مواقف أخرى • يروى تجربة زوجته التى عاشت المرض ثم الشفاء، ثم المرض مرة أخرى، وقد تنقل معها وبها فى معاهد العلم والعلاج التى قدمت لها أفضل ما كان ممكنا من رعاية كانت تستحقها هذه السيدة العظيمة التى شاركته عن حب وإخلاص حياته الحافلة بالصعاب • صاحب المذكرات يبدى اعتزازا لا حدود له بكتابه «اليمين واليسار فى الإسلام»، وهو يكاد يوحى لنا أنه كان يتمنى أن يقدم نفسه لكل مجتمع بهذا الكتاب، على الرغم من اعتزازه بتاريخه الأدبى فى القصة القصيرة، ثم فى العمل الدرامى الإذاعى، والتمثيليات الإذاعية، وما إليها، ثم عمله أيضا فى الكتابة للسينما • ما كان يؤمن به أحمد عباس صالح من فكرة التقدم وضرورتها الملحة أو الحتمية لمجتمعه ووطنه • مع أنه كان بحكم تكوينه الفكرى، والمجتمع الذى بدأ حياته فيه، يظن التلازم حتما بين الحداثة والتقدم والوطنية والعروبة والعدالة الاجتماعية، إلا أن رحلته التى تصورها سطور المذكرات وفقراتها وفصولها تكاد تجعلنا نفقد الأمل فى إمكان تحقيق بعض ذلك التلازم، وربما معظمه • حياة الرجل تطمئننا على أن الأمل فى القيم العليا لا يخذل صاحبه، وأن عدالة السماء تكفل له تعويضا آخر من حيث لا يدرى، وربما من حيث لا يحتسب • صاحب المذكرات لايزال معتزا بالمحطات الفكرية المؤثرة فى حياته الأولى • يذكر أنه هو الذى تولى كتابة استقالة عبد الحكيم عامر الشهيرة فى بداية الستينيات • كيف أتيح له أن يعرف صلاح سالم ونشاطه فى السودان • أحمد عباس صالح يميل إلى المجاهرة بالقول بأن التأميم والتوجه الاشتراكى الذى بدأت عبد الناصر كان ضربة لجماعات المشير عبد الحكيم عامر فى ظل صراع الرجلين على السلطة، ومن العجيب أن يكون هذا هو توصيف واحد من اليساريين لهذه الخطوة الجبارة على طريق التحول الاشتراكى • يعترف أنه ويوسف إدريس وقفا وهما لا يكادان يصدقان عندما سمعا عبد الناصر يعلن أول قرارات التأميم • يفاجئنا بالحديث عن موقف زوجته من مبادرة السلام، وكان كلاهما فى العراق، وهو الموقف الذى نبهه إلى جانب مهم من الحقيقة، وجعله يعيد التفكير فى كثير من المسلمات • يدلنا على أنه فى أثناء غربته كان قد بدأ يواجه الأمر الواقع فى العلاقات الدولية فيما يتعلق بالصراع العربى - الإسرائيلى • يفاجئنا بالحديث عن إحباطه حين حضر مؤتمرا دوليًا فى كوبا، ووجد بعض الشيوعيين اليهود يميلون إلى حذف النص على التوصية بإدانة إسرائيل • يحدثنا عن اضطراره هو وزملاؤه المصريون إلى لقاء كبار المسئولين فى الحزب الكوبى، والرئيس الكوبى فيدل كاسترو من أجل المحافظة على زخم «إدانة إسرائيل» • يشير إلى ما لم يشر إليه غيره من ضيق الرئيس الكوبى بهزيمة العرب أمام إسرائيل، ولومه لهم على هذه الهزيمة • يحرص

على أن ينتقد موقف اثنين من اليساريين الأجانب اللذين عرفا على أنهما صديقين للحق العربى والشعوب العربية، وهما الصحفى الفرنسى الشهير إيريك رولو، ورئيس الوزراء السوفيتى السابق بريماكوف ● يصور الملامح التى أثرت فى شخصيته ● يفعل الشىء نفسه فى حديثه عن بعض ملامح تكوينه السياسى، وانظر ،على سبيل المثال، إلى هذه الفقرة التى تصور حيرته بين الانتماءات المختلفة، ولسنا ندرى لماذا لم يحسم اختياره فى اتجاه الوفد إلا أن يكون الأمر رغبة فى التميز، ومع هذا فإننا نسارع إلى التنبيه إلى ما ذكره من أنه لم يكن على استعداد لخيانة الوفد والحديث عن ٤ فبراير بالطريقة التى كان رجال الثورة يحبذونها ● يتحدث باعتزاز عن لحظات وقوعه فى أسر الشيوعية وحبها ● أحمد عباس صالح يؤثر أن يتحدث عن شخصية شبه عمالية مغمورة، لكن فهمها كان سابقا على نشاط المثقفين والمتعلمين ● يتحدث عن اختلاف هذا الزعيم العمالى مع القيادات المركزية، مع أنه كان على الحق حسبما يتصور صاحب هذه المذكرات، ومن العجيب أن أحمد عباس صالح يستطرد من هذا الموقف مباشرة إلى انتقاد الزعيم المؤسس لحركتهم الشيوعية، وإلى الحديث عن نهايته، مضفرا هذا بحديثه هو عن انفصاله عن هذه الحركة منذ ذلك الحين ● روايات أحمد عباس صالح المتناثرة فى مذكراته من الشخصيات السياسية التى قدر له أن يعرفها ● يتحدث عن معرفته المبكرة بفتحى الرملى ● تحفل المذكرات بما لايزال صاحبها يذكره عن بعض نجوم الفن فى الهيئة التى قدر له أن يراهم فيها ● يشير بالطريقة نفسها إلى كثير من ذكرياته عن الأدب والثقافة والصحافة ● يتحدث عن أول لقاء جمعه بمحمد عودة بادئا مرحلة من الصداقة التى استمرت حتى كتابته لمذكراته ● يشير إشارة واضحة إلى دور الأستاذ أنور المعداوى فى مجلة «الرسالة»، وهو الدور الذى لايزال بحاجة إلى تقدير ● يتحدث عن كبار الأدباء الذين عرفهم على مستوى التجمعات الأدبية الحرة ● أروع الذكريات الأدبية لا تأتينا فى هذ الكتاب إلا عندما يتحدث أحمد عباس صالح عن لقائه الأول بالشاعر إبراهيم ناجى، وكيف أحس تجاه هذا الرجل العظيم بانبهار حقيقى لا حدود له، وبتقدير عميق، وبإعجاب شديد بروحه الإنسانية، وبشخصيته الحافلة بالإنسانية والحكمة ● يتحدث عن تطور علاقته بالشاعر إبراهيم ناجى حديثا ممتعا لا يخلو من تصوير جميل للواقع الثقافى فى ذلك العهد الذى شهد نمو مثل هذه العلاقات الراقية، ويكفى أن يصور لنا أن الشاعر اشترى له هدية قيمة لا لشىء إلا لأنه يحب الشعر ● يتحدث عن أستاذية إبراهيم ناجى لطلاب الطب الثلاثة الذين اشتهروا بالأدب بعد ذلك، وهى أستاذية غير مشهورة فى ظل ماوصلوا إليه من شهرة فى عهد كان يحبذ إنكار دور الأساتذة والبدء من الصفر ● أحمد عباس صالح لا يبخل علينا بحديث عن دوره فى إصدار مجلة «الأديب المصرى» تحت قيادة الأستاذ محمد مفيد الشوباشى، لكنه سرعان

ما يتخذ من هذا الحديث مدخلا للحديث عن قراره الذى اتخذه بإكمال دراسته على نحو يتيح له أن يكون صاحب شهادة، وهو يعترف أن توجهه نحو استكمال تعليمه على هذا النحو كان شيئا من العبث، بل إنه يصل إلى وصفه بالمصارعة الطفولية، والمباهاة الساذجة ● حديثه عن جوهر التعليم الذى حظى به ● أحمد عباس صالح يتحدث فى سرعة بالغة عن بعض ملامح تعليمه الذى كان أبرز ما فيه دراسته فى المعهد البريطانى حيث أتقن الإنجليزية ● لا يبخل علينا بأحاديث مطولة عن تجاربه شبه الثرية فى الوظائف التى قدر له أن يعمل بها فى المرحلة الأولى من حياته حيث أتيحت له خبرات تراكمت حتى كونت شخصيته على النحو الذى تطالعنا به المذكرات ● يذكر تجاربه المبكرة فى العمل الحر ● حديث أحمد عباس صالح عن الشخصية المحورية التى أثرت فى تكوينه حين بدأ يعى أثر عناصر التكوين فى صياغة الشخصية، ومن المذهل أن يكون صاحب هذه الشخصية هو الشيخ الأزهرى الشهير محمود أبو العيون ● ينتقل إلى الحديث عن الدور الوظيفى الذى قدر له أن يقوم له إلى جوار الشيخ محمود أبو العيون، وكيف أتيحت له الفرصة المبكرة ليؤدى عملا محوريا فى مجلة ذائعة الصيت هى مجلة «الأزهر» ● ينتقل إلى ذكرياته عن أهم مقال كتبه فى حياته، وهو المقال الذى نال إعجاب الشيخ أبو العيون، حتى إنه تطوع بأن أسنده إلى نفسه كى يعطيه القوة المطلوبة، وهو أيضا المقال الذى كان نواة فيما بعد لأشهر كتب أحمد عباس صالح وهو كتابه «اليمين واليسار فى الإسلام» ● ولست أنكر أن القارئ لمذكرات أحمد عباس صالح يكاد يحس أن فضل الشيخ أبو العيون فى هذا المقال يفوق فضل أحمد عباس صالح نفسه الذى كان من الممكن له أن ينتهى من علاقته بالمقال كأى مقال آخر دون أن يعنى به أو يعى قيمته! ● يجيد تصوير ملامح حياة هذا الشيخ العظيم فى الوظيفة ● حديث أحمد عباس صالح عن الأستاذ عباس محمود العقاد، الذى كان بمثابة صاحب ثانى أكبر تأثير فى تكوينه الفكرى والإنسانى بعد الشيخ محمود أبو العيون ● يلخص علاقته بالأستاذ العقاد فى السنوات العشر الأخيرة من حياته ● يتحدث عن حبه لزوجته حديثا صادقا موحيا باعثا على تقديرها وتقديره أيضا ● انطباعات أحمد عباس صالح عن فترات الغربة ● موقفه الناقد للنظام العراقى فى عهد صدام حسين ● يلخص التعبير عن الإحباط الذى أصابه وأصاب أنداده عندما اكتشفوا حقيقة نظام صدام حسين والطريق الذى يسير إليه هذا النظام ● يلخص موقفه ورأيه من حرب العراق على الكويت فى مواضع متعددة ● حديثه عن العراق لا يخرج عن هذا الإطار الذى يتحدث به شخص عرف طابع الإنسانية والليبرالية وحقوق الإنسان ● حديثه عن أكثر من موقف قدر له أن يشهده، أو أن يلم بأطرافه فى أثناء إقامته فى ذلك الوطن العربى ● يروى ذكرياته اللاحقة عن قصة إعدام مجموعة من خيار المثقفين العراقيين ● يصل إلى ذروة

مشاعره تجاه نظام صدام حسين ● أما حديث أحمد عباس صالح عن الحياة فى لندن فى مواضع عديدة من مذكراته فإنه فى المقابل ينطق بوضوح بالتقدير الحقيقى للحضارة الغربية والإدارة البريطانية ● يتحدث عن الحياة فى الولايات المتحدة بقدر مواز من الإعجاب، ويبدأ هذا الإعجاب من مستوى عال من التقدير عندما يروى فى سعادة الشعور الذى انتابه حين اكتشف سهولة الحصول على الفيزا الأمريكية على الرغم من تخوفه من أن يكون لموقفه السابق من المخابرات الأمريكية وكشفه تمويلها لمجلة «حوار» أثر سلبى● رواية قصة الدور الذى لعبه زملاؤه الثلاثة عبد الجليل حسن، ونبيل زكى، وجلال السيد فى كشف علاقة مجلة «حوار» بالمخابرات الأمريكية ● يحرص على نفى صحة مارددة لويس عوض مستندا إلى النيويورك تايمز من أن المخابرات المصرية هى التى كشفت هذه العلاقة ● يروى بالتفصيل قصة جائزة مجلة «حوار» التى خصصتها لأعظم كاتب قصة عربى، وكيف اعتذر نجيب محفوظ من قبولها بينما تشبث بها يوسف إدريس، وكيف اختلف هو نفسه مع صديقه يوسف إدريس فى هذا الموقف، مما جعله يتبنى التوجه الذى رفع به اسم يوسف إدريس من مجلس تحرير مجلة «حوار»، وكيف أن يوسف إدريس عاد واعتذر عن قبول الجائزة، وكيف أن كمال رفعت هو الذى روى القصة للرئيس جمال عبد الناصر لتبدأ بعد هذا تفصيلات القصة المشهورة عن اعتذار يوسف إدريس عن الجائزة، وقرار الرئيس عبد الناصر بتعويضه عنها ● ينفرد برواية موقف يوسف إدريس «المضطرب» بين الخجل والمهانة حين دعى إلى مكتب سامى شرف ليناوله ظرف بقيمة الجائزة، مما جعله يفكر فى الاعتذار عن قبول هذا المبلغ ● تطور علاقة أحمد عباس صالح بثورة يوليو، ورأيه فى سياساتها ومسارها ● نرى أحمد عباس صالح يبدى رأيا مبكرا فى ثورة ١٩٥٢، وهو رأى يميل إلى القول القائل بأن حركة الجيش هذه أجهضت ثورة اشتراكية كانت على الأبواب ● لا يكتفى بمثل هذا الحديث فى موضعه، لكنه يعود فيؤكد هذا المعنى بطريقة أخرى ● أحمد عباس صالح يمضى فى إثبات صحة رؤيته هذه من خلال ما تنامى إليه من معلومات وقرارات، وهو على سبيل المثال يروى ما حدث به أستاذ طب بارز لم يشتهر بالعمل بالسياسة فيما بعد ذلك، وهو الدكتور حليم دوس، حين تناقش هو ويوسف إدريس معه عن علاقة ضباط الثورة بالأمريكيين فأخرج لهم الرجل من جيبه كتابه «لعبة الأمم» فى طبعته الإنجليزية قبل أن تحذف بعض صفحاتها فى الترجمة العربية ● يتحدث بشىء من «الفضفضة الممتزجة ببعض التشويش» عن لقاءاته المبكرة مع أنور السادات ورجال الثورة، والدور الذى قدر له أن يؤديه فى مجلة «التحرير» ضمن مجموعة يسارية خلفت مجموعة يسارية أخرى ● ينفرد برواية تفصيلات احتفال الثورة بالزعيم محمد فريد، ودوره هو نفسه فى تنظيم هذا الاحتفال الصحفى، وفى أثناء هذا ينفرد أيضا بحديث منصف عن الدكتور

خليل مدكور الذى قدر له أيضا أن يعرفه، وقدر له أن يهيئ لاحتفال الثورة أن تفيد من تاريخه مع الزعيم محمد فريد ● قصة أزمته «الحاكمة» مع عهد الثورة، وهى أزمة مبكرة صاغت مواقفه كلها فيما بعد، ودفعت بهذا الموقف إلى نهايته الطبيعية فى الاغتراب الآمن بعيدا عن مناخ غير مستقر على نحو ما نرى فى قصة حياته ● الحديث عن الظروف أو الصدفة التى هيأت له أن يقدم فكرة هذا العمل بديلا عن عمل آخر كان قد اقترحه عليه الفنان السيد بدير الذى كان، على حد وصفه، يراهن الثورة على قدراته ● رأى صديقه اليسارى القديم ● رأى والده هو نفسه ● يفاجئنا بما لم يكن هو ولا غيره يتوقعونه من رد فعل قاتل (!!) ● جوهر الأزمة على حسب ما تصورته الثورة، وعلى حسب ماتم «سرده» «سردا» واقعيا على نحو سريع لم يكن أحمد عباس صالح نفسه يتوقعه ● ها هو مجلس قيادة الثورة بكامل أعضائه يتولى التحقيق مع صاحب المذكرات الذى لم يكن يعرف عبد الناصر ولا غيره، وإن كان يعرف صلاح سالم من صوره، كما كان بالطبع يعرف أنور السادات الذى اجتمع أعضاء مجلس الثورة فى مكتبه فى مبنى جريدة «الجمهورية» ● يجيد وصف حالته النفسية التى حضر بها هذه المحاكمة الفريدة التى واجهها على حين فجأة، ومن الحق أن نشير إلى أن تصويره الهادئ لهذه اللحظات يحفل بكل ما هو معجز من الصدق، ودقة التعبير ● يقارن بين خشونة صلاح سالم التى لا نهاية لها، وبين عطف أنور السادات الذى كان مثابة الشىء الوحيد المطمئن فى الساحة الحافلة بالتوتر ● فى خضم هذا قدر له أن يعرف عبد الناصر معرفة أوقفت شعر رأسه على حد تعبيره!! ● يصور السبب الذى جعله ينجو من الاعتقال مع اليساريين ١٩٥٩ ● يتحدث عن صداقته لمحمد أبو نار، وعن صفات ذلك الصديق ومزاياه، ومن الطريف أنه لم يكن وحده، حسب روايته، صاحب هذا الحظ السعيد، لكنه كان واحدا من مجموعة من مشاهير اليسار ● يروى كيف قدر له هو نفسه أن يسهم فى نجاة يوسف إدريس من الاعتقال الذى كان قد تعرض له مع الشيوعيين، وفيما يبدو فإن هناك تعارضا فى الروايتين، وبخاصة فيما يتعلق باسم يوسف إدريس، إلا أن تكون المصادفة تكررت مع اسم يوسف إدريس مرتين، ونحن نعرف بالطبع أن اعتقالات ١٩٥٩ (أو اليوم الأخير من ١٩٥٨) قد جاءت بعد أن استقل السودان فى أول يناير ١٩٥٦ (!!) ونحن نتحفظ على بعض ما فى هذه الرواية! ● إذا كان التصوير الذى أجاده أحمد عباس صالح لكرامة الإنسان غير المستقرة على يد نظام الحكم فى عهد الثورة مردودا عليه بأنه يتحدث عن تجربته هو أو عن تجربة صديق مقرب كيوسف إدريس، فإنه يحدثنا حديثا آخر يدل دلالة قاطعة على مدى ما يلعبه الحظ فى إنقاذ كثيرين من مصائرهم الثورية!! بفضل صدف عابرة، وهو ما يتبدى بوضوح مما يقصه علينا فيما يتعلق بإنقاذ حمدى غيث من التشرد بفضل مسلسل «أبى ذر الغفارى» ● أحمد عباس صالح لا يكف عن رواية كثير

من المواقف الفارقة التى تكشف بوضوح عن طبيعة الشمولية وما يشوبها من القهر والخوف اللذين كانا بمثابة نتيجة طبيعية لهذا النمط من الحكم، ولنقرأ على سبيل المثال ما يتحدث به عن تجربة لطفى واكد، وعن انطباعات ذلك الرجل حين زاره أحمد عباس صالح بعد خروجه من السجن ● يبدو أن أحمد عباس صالح كان مرتاحا إلى تشخيصات يوسف إدريس فى وصف الثورة ● الحديث عن الشخصيات التى قدر لأحمد عباس صالح أن يفيد منها ومن خبرتها، فى أثناء عمله الوظيفى ● السيدة روز اليوسف : يتحدث عنها بحب وتقدير شديدين، منفردا برواية موقف غير مشهور لها مع رجال الثورة ● يثنى على السيدة الفنانة نادية لطفى فى فقرات متعددة من مذكراته، مشيرا باعتزاز إلى صالونها وعلاقاتها الاجتماعية الدافئة ● يتحدث حديثا طريفا عن اثنين من كبار الأطباء المصريين فى لندن، وتأتى طرافة هذا الحديث من أن صاحبه كان مريضا يتعامل مع كبار الأطباء، ومن أنه هو نفسه أصبح أبا لأطباء متميزين يعملون فى الخارج أيضا ● حديثه عن الدكتور مجدى يعقوب ● حديثه عن الدكتور فايز بطرس يحفل بالتقدير، وإن لم يخل من انتقاد إهماله لضبط الوقت فى مواعيده ● يصل نقد صاحب المذكرات له بسبب هذه الجزئية إلى أن يصفه بأنه «هليهلى» ● فقرة مشعة بالدفء يتحدث فيها أحمد عباس صالح عن الأيام الأخيرة فى حياة زميله الأستاذ موسى صبرى ● ينفرد بالحديث الصريح عن النهاية الدرامية لحياة الشاعر الفنان إسماعيل الحبروك، وعن السبب المباشر فى هذه النهاية من وجهة نظره هو ● يتحدث عن الحوار الذى دار بينه وبين صلاح سالم حول مسئولية هذا الأخير عن نهاية حياة إسماعيل الحبروك على هذا النحو المؤسف ● أحمد عباس صالح يتحدث عن الدكتور محمد البهى حديثا مهما، وإن لم يكن متشبعا بالحب ● يتحدث عن الأستاذ إسماعيل مظهر بما هو غير مشهور عنه ● المؤلف يتوقع أن المذكرات لن تحظى بكثير من عناية النقاد والمؤرخين، ذلك أن صاحبها كتبها على هذا النحو الذى يكون به سبحات غير متجانسة من دون أن يخضعها لتجربة واحدة، أو لمسار واحد ● لم يكن واعيا بأهمية التاريخ والمذكرات الشخصية فى ظل اهتمامه بالأدب، وهو ما حدث على سبيل المثال حين فرّط فى جمع مذكرات رشيد عالى الكيلانى فى كتاب، بعدما كان قد تولى كتابتها فى مجلة «صباح الخير».

الباب الثامن: من ذكريات معتقل سياسى: مذكرات الأستاذ صليب إبراهيم

● التعريف بصاحب المذكرات ● المؤلف نجح فى أن يلخص حياته على هذا النحو الذكى الذى أوحى به عنوان مذكراته، وهو عنوان متواضع فى كل كلمة منه، حتى وإن أوحت بعض كلماته بغير التواضع ● لايفتأ صليب إبراهيم يحدثنا فى نعومة وتواضع وسلاسة عن معتقداته فى ثورة يوليو بداية وعهداً ونهاية، وهو يجاهر بما لايجاهر به غيره من إيمانه بسيطرة الفاشية على فكر

رجال الثورة ● يدلل على فكرته بما عبر عنه عبد الناصر نفسه فى خطبته يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٨ فى بورسعيد، عندما شن على الشيوعيين - الذين كانوا يدافعون عن بورسعيد قبل عامين أثناء العدوان الثلاثى أبشع حملة استعان فيها بكل التهم الباطلة والنعوت التى لم يسبق أن صدرت من قائد وطنى فى مصر، ثم لحق به محمد حسنين هيكل الذى أعلن فى مقاله بالأهرام أنه يتوجب على الشيوعيين أن يغلقوا أفواههم ويضعوا عليها أقفالاً من حديد وإلا . .(وكانت بعد ذلك هذه ال . .إلا) ● يتعاطف تعاطفًا غير خفى مع الفلسطينيين الذين زجت بهم الثورة فى المعتقلات مشيرًا إلى تجربته فى مزاملة معين بسيسو، وعبد القادر ياسين، وغيرهم من معتقلى غزة الذين قدر له أن يزاملهم حين امتد النظام الناصرى باعتقالاته إلى الفلسطينيين فى غزة التى كانت واقعة تحت الإدارة المصرية ● صليب إبراهيم يحرص على الإشارة إلى أن معين بسيسو كان يرفض(وهوفى المعتقل) أن يقرأ للمعتقلين قصائده التى أشاد فيها بالتجربة الناصرية قبل أن يقع أسيرًا للاعتقال السياسى الظالم ● يبدى رأيه الواضح فى إعدام خميس والبقرى فى بداية عهد الثورة، وهو يقرن هذا الرأى برأى مماثل فى الإهانة التى حرص العهد الجديد على أن يلحقها بعدلى للموم كرمز من رموز الإقطاع أو العائلات الكبيرة ● صليب إبراهيم يبدو متأثرًا كل التأثر بالمصير الذى لقيه فرج الله الحلو، سكرتير الحزب اللبنانى، الذى أذيب جسده فى الأحماض ● يرى أن النظام الناصرى لجأ بعد ذلك إلى عملية الإذابة المعنوية والجسدية البطيئة حتى لاتفوح رائحة الجريمة ● نرى صليب إبراهيم حريصًا على أن يضمن مذكراته ذلك النص الذى يعتز به وبالبحث عنه و بعثوره عليه ، وهو نص قصيدة «الشهيد» للشاعر محمد مهدى الجواهرى بكل ما تتضمنه هذه القصيدة من المعانى السامية والقيم الثورية ● ينقل للقارئ صورة من نعى الأسرة الذى نشر فى الأهرام عقب استشهاد شهدى عطية الشافعى متعجبًا ومذهولا، من غفلة الأهرام عن الانتباه إلى ما تضمنه هذا النعى من دلالات ومن أبيات للشاعر العربى العظيم أبى تمام ● على مدى صفحات الكتاب يجد القارئ نفسه فى مواجهة كاتب وطنى قادر على الحكم على الأمور وعلى التمسك بصواب حكمه على الأمور ، وعلى دفع ثمن هذا الحكم من نفسه وبدنه وعلاقاته، وهو يبدأ سلسلة أحكامه التى ربما تقترب به من الحرص على أن يكون واحداً من ملاك الحقيقة المطلقة !! منذ الصفحة الأولى للكتاب حين يضع في صدارة كتابه جملتين بتوقيعه ● يقف متحفظًا على علاقة الثورة بالإخوان. يحرص فى كل مناسبة على إدانة الطرفين بما يستحقان وبما لايستحقان كذلك ● يقف مذهولا (دون داع للذهول) أمام تحول بعض رموز اليسار إلى فكر الإسلام السياسى وكأن التحول الفكرى أمر غير وارد على الإطلاق ● يحفل الكتاب بحديث ممتع عن شخصيات قدر له أن يعرفها وأن يزاملها ● أهم هذه الأحاديث هو تعريفه الجميل والوافى

بشخصية صديقه شوقى عبد الحكيم الذى يصفه فى بداية الكتاب بأنه شخصية نادرة مملوءة بالحب والسياسة والثقافة، وقرب نهاية الكتاب يقدم صورته بقدر كبير من التفصيل ● يثنى كثيراً على بعض زملائه فى المعتقل وفى مقدمتهم المحامى يوسف حلمى، وهو يذكرله حبه لسيد درويش ● يثنى كثيراً على الشاعر فؤاد حداد، ويورد له كثيراً من نصوصه ● يثنى على الدكتورحمزة البسيونى، الطبيب الإنسان ● فى فقرات متباعدة يذكر بالثناء كلا من ألفريد فرج، وحسن فؤاد، وعبدالستار الطويلة، ومحمد حمام، وزهدى حافظ، ومهندس الديكور مصطفى كامل ● يحرص أيضا على الإشارة إلى نشاطه الصحفى فى المعتقل من خلال جريدة «عنبر إلى الأبد» التى صدرمنها عددان، وهى صحيفة حائط ● يضمن كتابه صوراً للحوارات التى أجراها فى مجلة قام بتحريرها للشركة التى قدر له أن يعمل فيها بعد فترة من خروجه من الاعتقال ● يشير إلى سبقه الصحفى، حين سجل حادثة انتحار فى السجن لمسئول كبير، وأنه بعث بما سجله إلى الكاتب حلمى سلام، فنشر رسالته فى بريد المصور، وأبرزها بما يليق بها ● ومع هذا فإنه يعترف بأنه لا يذكر اسم المنتحر! ● الحاسة الصحفية الغالبة على صليب إبراهيم، تجعله حريصاً على أن يلتقط الأحداث الدرامية فى فترة الاعتقال، وأن يشير إليها حتى لو كانت إشاراته سريعة، ومن هذه الحوادث قصة هروب إبراهيم هرارى من الواحات بطائرة إلى الإسكندرية ومنها إلى فرنسا ● يروى موقف أحد ضباط السجن المشهورين من رفض القيام بالتوقيع على خروج المعتقلين بعد تجربة سابقة له ● يروى تجربة أسرته الصغيرة فى محاولة معرفة مصيره، بعد ما أعلن راديو وارسو وفاته فى المعتقل ● التجارب الإنسانية فى الكتاب ثرية بالتعبير الدقيق عن ملامحها حتى إن توارت مع الإحساس بوطأة التعذيب وقسوته ● يعبر عن خوفه من النوم على السرير بعد خروجه من المعتقل ● يثنى الثناء كله على زوجته، وكفاحها، ووطنيتها ● يحرص على رواية قصة محاكمة مصطفى طيبة، الذى حكمت عليه الثورة بالسجن، لمحاولة قلب النظام الملكى!! ● وهو يجعل عنوان الفصل الذى أورد فيه هذه القصة «طرائف أم عجائب أم غرائب»، وهو يروى القصة بطريقة مؤثرة ● يحرص على أن يثبت انتقاداته لرموز الطغيان الذى عانى منه، وفى مقدمة هؤلاء، اللواء إسماعيل همت ضابط مصلحة السجون الشهير، الذى قدر له أن يلقاه فيما بعد؛ فإذا بصليب إبراهيم ينفر منه ويحرص على أن يعبر له عن احتقاره!!